

مقالات

آية الله العظمى الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي (قدس سره)

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

هاج بي - في فترة قصيرة مرّت مرّ السحاب - هائج الحزن، على الأوضاع، ورأيت أن الفاسد منها أكثر من الصالح، وكنت - كما في الحال الحاضر - لا أملك من الإصلاح إلا أسلة قلم، وبياض ورق.. وهناك جرت لهفات قلبي من اليراع على القرطاس.

ولست أدري الآن مدى تطابق ما كتبت آنذاك للحقيقة.. لكن صديقاً طلب إعدادها للطبع، ولم أر مبرراً للإحجام. فإنها لا تخلو عن أحد اثنين:

١- حق أستنير به، ويستنير به غيري.

٢- أو خطأ.. لعل صديقاً ينبهني عليه، فأرتدع..

والله أسأل أن يوفقني لاتباع الحق، ويسدّ رأيي في فهم الإسلام.. ويأخذ بيدي لنشر الفضيلة، وهو المستعان.

كربلاء المقدسة

محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي

سمة الفضيلة

لكي شيء سمة يُستدل بها عليه، وإن اختلفت الأشياء والسمات، فربما كانت أشياء لها علامات كثيرة وظاهرة، كما أن هناك أشياء لها سمات خفية لا يعرفها إلا أفراد قلانل.

والفضيلة من الأولى فهي تتمتع بمظاهر كثيرة يعرفها كل أحد، ليست الفضيلة كالدرهم المختفي في صندوق الصيرفي، ولا كالجواهر الثمينة الموضوعة في سبط الصانع، ولا كالصك الغالي المضموم في حقيبة التاجر، ولا كالذهب المكنوز في أطباق الأرض، لا يطلع عليها إلا أفراد مخصوصين لهم حق الملكية، أو علم طبقات الأرض، أو نحو ذلك.

إن الفضيلة كالعقل يعرفها كل من نظر إلى صاحبها، فكما أن الشخص لو نظر إلى المجنون عرف أنه مسه طائف من الشيطان، بمجرد حركة تصدر منه، أو نظرة يلقاها، أو لفظ يتكلمه، أو بيع أو شراء أو ما إليه.. فذلك لو نظر إلى المنسلخ عن الفضيلة لعرف ذلك، بمجرد معاملة، أو مجلس، أو جلوة، أو خلوة.

كل من العقل والفضيلة يأخذ بزمام الإنسان، فالعقل يمنعه من الطفرة في موضع المشي، والمشي في موضع الطفرة، والإقدام في محل الإحجام، والإحجام في محل الإقدام، والكلام حيث يقتضي السكوت، والسكوت حيث يقتضي الكلام، وهكذا.. والفضيلة تمنعه من الكذب في القول، والخيانة في الأمانة، والغدر في محل الوفاء، والخلف بالعهود، والبخل بالمال، والوقاحة في العمل والكلام، وما إليها..

لو قال المجنون: أنا عاقل، لكنه رقص وعربد، ووثب وترنح، لم يكن ينجع قوله ما كذبه عمله، وكذا لو قال الرذيل: أنا صاحب الفضيلة، لكنه كذب وبهت، وأحب الظهور وخان، ونقض العهد ولم يف بالوعد، لم يفد قوله ما كذبه عمله وناقضه فعله.

من يحمل العطر فاحت رائحته وإن قال أنه لم يحملها، ومن يحمل القذارة المنتنة، انتشر ريحه وإن أظهر أنه لم يصاحبها، إن كلّ صبح تشرق شمس، وكل مساء ينير قمره، لا بد وأن يقف الإنسان مرة أو مرات على مفترق طريقي الفضيلة والرذيلة، ولا بد أن يختار، فإن اختار الأولى شهد عمله بفضله، وإن اختار الثانية دلّ اختياره على نقصه.

ربما كنت أفكر أن لو أعلن متجر من المتاجر أنه يكذب في البيع، ويغش المعامل، ويدفع إليه بدل الحسن قبيحاً، والصحيح معيباً، ويزيد في السعر. ثم عمل بعكس ذلك، فصدق ونصح، وأعطى الحسن الصحيح رخيصاً، تراحم عليه المشترون غير مباليين بما قال، ولو انقلب الأمر، فأعلن صدقه و.. ثم عمل على عكس ما أعلن، تفرق عنه الزبائن غير مباليين بقوله، وهذا مما يشهد بما ذكرناه هاهنا من أن الملاك في الفضيلة العمل لا القول.

إن صاحب الفضيلة يعدل إذا حكم، ولا يرتشي، ويساوي بين القوي والضعيف، ويصدق، ويبكي للأشقياء، ويرحم الضعفاء، ويبطن الإخلاص، ويتواضع، ولا يسب، ولا يشتم، ويقنع، ويجد، ولا يكسل، ولا بد أن يعرف

ذلك منه صديقه وقريبه، وجاره وحميمه، ومن جالسه أو صاحبه أو سافر معه أو سمع منه أو رآه. بخلاف صاحب الرذيلة، فإنه يعمل على العكس من ذلك فينعكس أمره، وتبدو سوءته، حتى يحذره القريب، ويتجنبه البعيد، ويصبح معروفاً بالشر، لا يُرجى نواله، ولا يؤمل في عدله، ولا يُنتظر معروفه. انحلال الفضيلة من أهون الأمور، لكن العمل بها، من أصعب المشكلات، ولذا كثر القائلون، وقل العاملون، والناس مهما داهنوا صاحب الرذيلة، وعارضوا صاحب الفضيلة - لهنات توجب ذاك وهذا - فلا بد وأن يجري مدح الأول على لسانهم، وذم الثاني، ولو طال الكتمان وامتد الزمان.

الإصلاح

جرت سنن الكون على التقلب والتحول، فيصير النهار ليلاً والليل نهاراً، والخريف شتاءً والربيع صيفاً، والبر بحرًا والبحر برًا، تورق الأشجار ثم تسقط الأوراق، ويحيى الجمداء، ثم ينقلب الحي جماداً، وهكذا دواليك، وليست القوانين الاجتماعية، والفكر والعادة والعلم وما إليها، إلا مما يسيطر عليه نظام التقلب وقاعدة التحول، فليس الفكر صخراً يبقى ما بقي الكون، ولا العادة والارتكاز يتمتعان بالحياة الأبدية ما أم نجم في السماء نجماً، ولا النظام الاجتماعي كالشمس المضيئة التي تطلع كل يوم عن مشرقها وتغرب في مغربها، لا تزحزح، ولا تضعضع، بل كلها مما تلعب بها أصابع الأقدار، وتدور دورة الفلك بسعدها مرة فتبقى دهرًا طويلاً، وبنحسها أخرى فما تلبث إلا وتجري عليها أعاصير الفناء، وتجعلها في خبر كان.

إن النظام الفاسد الذي يسود المجتمع لا بد وأن يخلي مكانه لنظام صالح وإن طال به البقاء، ومدّ جذوره إلى أعماق الأرض، وفروعه إلى عنان السماء، لكنه ليس انقلاب النظام كتقلب الأيام، يدور بنفسه، بل يحتاج إلى مصلح قدير، يشدّب شجره، ويعبّد سبيله، ويسقي فسيله، ويتعاهد روضه، تعاهد الفلاح جنته، وذلك ما يحتاج إلى التضحية، ويفتقر إلى التفدية، فإن خلعت العادات عن رقاب الناس لا يسهل، واجتثاث جذور التقاليد عن الأفئدة غير هيّن، ولذا يعاني المصلح ما لا قبل له به، من أنواع الأذى، ويصب عليه ما لا يتحمل غيره من سياط العذاب.

فعلى من يريد الإصلاح، سواء أكان دينياً، أم سياسياً أم وطنياً، أن يوطن نفسه على صنوف الآلام، وأقسام السخرية والاستهزاء، ثم لا يدري بعد هذا وذاك أينجح في حياته أم بعد مماته، ويقدر في إحدى الحالتين، أم لا ينال شيئاً مما يطلب.

فطريق المصلح وعر خشن فرش بالقتاد، وألسنة من يريد إصلاحهم أحرّ من النار، وأفئدتهم تتلظى غضباً عليه، ونقمة منه، فمن كان باذلاً في هذا السبيل مهجته، وموطناً لكل شيء نفسه، فليقدم على ذلك.

إن المصلحين الكبار الذين قاموا لهذا الشأن عانوا ما عانوا، ولاقوا ما لاقوا، أما سلسلة الأنبياء والأولياء (عليهم السلام) فمصابيحهم ومتاعبهم حديث الألسن، وشنف السماع، ونصب الأعين، وأما غيرهم من الذين سجل التاريخ صحناتهم النضالية، باسم المصلحين والثائرين، فكم قاسوا صنوف العذاب وسيموا الخسف والذل، مات أحدهم في السجن، والآخر تحت وقع السياط، والآخر التهمته النيران، والآخر مشرداً عن الأوطان.

ف (غاندي)(١) كان مشرداً عن وطنه، يلقيه سجن إلى سجن، وينشره حكم، ويطويه حكم، فقضى عمره في فقر وإرهاق.

و (لامارتين)(٢) لم يجد في أخريات ساعاته إلا كلباً كان يلزمه، فيبث إليه حزنه، ويشكو إليه غدر أصدقائه.

و (كورني)(٣) لم يكن يجد من متعة الحياة إلا الهواء والشمس، ورقعة الأرض يجرف في رجليه نعالاً بالية، ويشرف جسده من ثقوب ثوبه.

و (سقراط)(٤) لم يزل يدعو إلى الصلاح، حتى سقوه السم.

و (ساقورلانا)(٥) كان يعطف على البائسين، ويصيح في وجه بائع الدين، فأحرقوه بالنار.

و (جمال الدين)(٦) كان تلفظه أرض إلى أرض، حتى قضى عمره شريد وطريد، في عذاب وعقاب، ويقال: لم يمت حتف أنفه، بل قتل قتلاً.

فالمصلح يحتاج قبل كل شيء إلى صدر رحب، وإرادة قوية، وعزيمة صخرية، وذكاء ثاقب، وصدق لهجة، وحلم واسع، واستمرار في العمل، وعدم اليأس مهما لم يوفق لنتيجة.

يؤدي المصلح فلا بد أن يصبر، ويسب فلا بد أن يحلم، ويهان فلا بد أن يعفو، ويضرب فلا بد أن يصفح، ويسجن فلا بد أن لا ييأس، ويغضب فلا بد أن يكظم، لا بد أن يستمر المصلح في عمله وإن لم يثمر بذره، ولم يفرع شجره ولم ينبع الماء من حفره، ولم يؤمن به أحد.

إن نوح (عليه السلام) لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً(٧)، وصالح (عليه السلام) دعا قومه مائة

١- زعيم سياسي وروحي هندي (١٨٦٩-١٩٤٨م) لقب بالمهاتما، نادى باللاعنف والمقاومة السلبية، عمل على تحرير الهند من نير الاستعمار البريطاني، دُعي (مهندس الاستقلال الهندي)، قتله هندوسي متعصب.

٢- ألفونس دو لامارتين (١٧٩٠-١٨٦٩م) شاعر وسياسي فرنسي، تولى رئاسة الحكومة المؤقتة بعد ثورة ١٨٤٨م، له أعمال أدبية.

٣- كورناني (١٦٠٦-١٦٨٤م) شاعر مسرحي فرنسي كبير، ولد في روان، يعتبر مبدع الفن المسرحي الكلاسيكي في فرنسا.

٤- سقراط (نحو ٤٧٠ - ٣٩٩ ق م) فيلسوف يوناني، يعتبر هو وأفلاطون وأرسطو من واضعي أسس الثقافة الغربية، حارب السفسطة وانتقد الحكم، فاتهمه خصومه بالزندقة وحكموا عليه بالإعدام، شرب السم فمات في سجنه.

٥- ايرونيمو ساقونارولا (١٤٥٢-١٤٩٨م) راهب دومينيكي، رئيس دير القديس مرمقس في فلورنسة، طالب بالإصلاح وحاول إقرار نظام تيوقراطي، حكم اسكندر السادس بحرقه.

٦- جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧م) شيعي اثنا عشري من كبار رجال الدين المصلحين، ومن فلاسفة الإسلام في عصره، جال في الشرق والغرب ودعا إلى الوحدة الإسلامية، أصدر مجلة (العروة الوثقى) في باريس ١٨٨٤م.

٧- إشارة إلى قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) سورة العنكبوت:

سنة، وعيسى (عليه السلام) دعا ما دعا فلم يؤمن به إلا اثني عشر شخصاً، ومحمد (صلى الله عليه وآله) دعا عشر سنين فلم يؤمن به إلا نفر قليل.

من لبس جلباب الإصلاح لابد وأن يخلع جلباب العز والاحترام، والإجلال والإكرام، والراحة والرفاه. إن فشل المصلح عاجلاً لا يضر، بعد العلم بأن النظام الصحيح الجاري فعلاً من نتائج أعمال المصلحين، وإن كان بينهم بعض الفروق بنجاح أحدهم وفشل الآخر، فإن تاريخ البشرية خيط طويل اشترك في قتله ونقضه أنكاثاً طائفة لا يستهان بها كثرة من المصلحين والمفسدين، فمصلح يبرم ومفسد ينقض، وهكذا حتى ينقشع سحب الفوضى، وتجلو شمس النظام ليس عليها غبار.

لو عدم المصلح الاحترام في حال حياته، فإنه لا يعدم الارتياح بصحة عمله، وإن أهانه الناس وهو بين أظهرهم، فسيعظمونه إذا فرّ من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، ولو رموه بالجنون، فسيجعلونه أعقل العقلاء يوماً ما، ولو قالوا عنه: أنه خائن، فالزمان كفيل بأن يزدحموا على تعاليمه ليتلقوا عنها دروس الوفاء والأمانة، قليل أن يجتمع للرجل عزّ العظمة وعزّ الاحترام والإجلال، فهو إما عظيم لا يُحترم، أو يحترم وهو حقير. أؤذي علي (عليه السلام) وسب، وقوتل، وظلم، وقتل ثم لم يلبث أن صار أعظم عظماء الشرق والغرب، وأعلم علمائهما، وأفصح عربي تكلم، وأكبر أمير، وخير خليفة للرسول (صلى الله عليه وآله) يفتخر به الشيعة لأنه إمامهم، والمسلمون لأنه خليفته، والعرب لأنه من عنصرهم، والشرق لأنه من عظمائهم، والدنيا لأنه من أبناء جلدتهم.

نظام اليوم مدين لكل مصلح مهما اختلف مذهبه، وحيثما كانت نشأته، وأينما دعا، ومن الجدير بالإنسان سواء أكان دينياً أم اجتماعياً أم سياسياً أم حقوقياً، أن يربأ بنفسه من أن يكون في صف المديونين، ولا يكون في رعي الداننين.

لم يتمّ صلاح العالم بعد، بل ربما كانت الحروب الطاحنة، والرذائل المنتشرة المدمرة، اللتين هما أكثر بكثير من الأزمّة الخالية، دليلين على أن الفساد - في الحال الحاضر - أكثر منه في الأيام الغابرة، فليشمر المصلحون عن ساق الجلد، ويجدّفوا بملء الحب، (لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا) (١).

الدار الآخرة

إن من ضيق النظر، وسفيف الفكر، وقصور العقل، وضنك الإدراك أن يتخيّل أحد أنه مادي محض، لا يربطه بالروح وشيجة، ولا يعلق بما وراء الطبيعة بعلاقة، ولا يجمعهما حبل، ولا تشملهما صلة. تبرهن العلوم الحديثة على أن الإنسان لم يخلق من مادة فقط، وإنما هو مزيج من مادة وروح. المادة تقوم بالواجبات المادية، والروح تقوم بالفكر والاختراع.

إذا بطلت المادة، فبقيت هامة، ولفظت جوهرها العلوي الشريف، فقد أثبت علم النفس أن الروح تبقى، ودعم العلم التجربة التي يقوم بها أصحاب التنويم المغناطيسي، الذي صار في عصرنا الحاضر من أوليات المعلومات، لا ترفرف حائمة الشك عليها، إن بقاء الروح لمّا يُدهش الإنسان. أترى تبقى في نعيم وسعادة،

وتحلق في أجواء الهناء تحليق الحمامة البيضاء في القبة الزرقاء؟ أم تبقى في بؤس وشقاء وعذاب وألم؟ هذا هو الشغل الشاغل للعلماء الروحيين.

كشف القناع عن وجه هذه المشكلة، وحل هذه المعضلة الشرائع الإلهية بما فيها من المجوسية واليهودية والنصرانية والإسلامية، حيث ترى هذه الديانات أن الروح تبقى في إحدى الحالتين:

إما رَوْحٌ وريحان، وجنة ورضوان، بين حور وغلّمان، في بلهنة من العيش آمنة وادعة فاكهة، لا يُحزن صاحبها فزع، ولا ينتابه مضض، ولا يدخله هم، ولا يجد الألم إلى قلبه طريقاً، والمرض إلى جوارحه سبيلاً.

وإما عذاب أليم، ونار وجحيم، في حزن وانكسار، وذلة وصغار، لا يُعرف له قدر، ولا يُقبل منه عذر.

ثم إن الديانات لم تجعل هذه النتائج وليدة الصدفة، بل جعلتها نتيجة الأعمال، فإن طوى الشخص عمره فضلاً وكمالاً، وبراً وإحساناً. صدق، وأخلص وجد، وتواضع وواسى، وأحسن، ووفى بوعده، وآمن بالله وملأته وكتبه ورسله، وصلى وصام وحج، وأطاع، ولم يفسد في الأرض، ولم يسرق، ولم يقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولم يزن ولم يسرق، كان من أهل النعيم، تتلقاهم الملائكة طيبين سلام عليكم طبتم فادخلوا الجنة خالدين، وهم على سرر متقابلين، لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تضليلاً.

وإن أسلف سعادته في الفضائح، وباع نفسه بالضلال والآثام، وتبع شهواته، دؤوباً في الشر، بعيداً عن الخير، وظلم وأفسد، وبخل واستغنى، وكذب بالحسنى، وقتل ونهب، وسرق وسلب، وغشّ الناس، ومنع الماعون، وأذى جاره، وقطع رحمه، وعقّ والديه، كان جزاؤه ناراً تحيط به سراقها، وإن استغاث يغاث بماء كالمهل، بنس الشراب وساعت مرتفقاً، وكلما نضجت جلوده بدلت بجلود غيرها ليذوق العذاب بما كان يصنع، يقول: ارجعوني لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت، كلا إنها كلمة هو قائلها، ولو ردّ لعاد لما نهى عنه، فهو في غم وحزن، ونار ولهب، خالد، لا يخفف عنه العذاب، وما له من أنصار، ولا حميم يُطاع، ولا شفيع يُسمع.

هذه هي الدار الآخرة، وهذه صفتها، وهذه ما دعا إليها الأنبياء المصلحون (عليهم السلام)، والأنمة الهادون (عليهم السلام)، والعلماء الأتقياء.

إن الدنيا الحاضرة ليست أكثر من مدرسة، فكما أن الطالب لو أكمل دراسته الابتدائية، والمتوسطة، والثانوية، والعالية، مما لا يطوي أكثر من ثلاثين سنة على الأكثر، فإذا به قد نال الشهادة الراقية، وتسّم كرسياً مرموقاً، وإنهال من أطرافه العز، ونال الوظيفة الفخمة، إن كان من أصحاب الوظائف، أو درّ عليه الرزق من مراجعيه، إن لم يكن من ذوي الرواتب، وقضى بقية عمره التي تتراوح بين الثلاثين والأربعين - على الأغلب - في هذه الرفاهية.

وذلك بخلاف من كسل عن الدرس، وبطل عن الحضور، حتى آل أمره إلى الرسوب، فإنه لا يجزى بالحسنى، بل إما أن يبقى في فقر مدقع، وذلّ موجه، أو لابد له أن ينشط في عمل آخر حتى يتخذة سلماً إلى العيش، يستظل بظلاله من لفح الحياة.

إن الدنيا كالمدرسة، والعمل الصالح كالدروس المتحضرة، والرجل الخير كالتلميذ النشيط، والرجل الفاسد، كمن جعل الدرس وراءه ظهيراً. منتهى الأمر أن الفرق بين المدرسة وبين الدنيا، أن الأولى تستغرق ثلاثين سنة، والثانية تستغرق ستين، ودار الجزاء للأولى هي الدنيا، وللثانية هي الدار الآخرة.

ولكن هناك فروق لا تخفى، فإن جزاء النجاح في الدروس ضئيل وإن كثر قدره، وعزّ محدود وإن تعاضم

شأنه، ولوقت قصير وإن طال أمدّه، مشوب بالكدره وإن صفي مورده، وذلك على خلاف النجاح في الدنيا بأخذ الشهادة العالية للدار الآخرة، فأنعمه لا تُعدّ كثرة، وعزّه لا يُحدّ سعة، وأمدّه إلى غير النهاية، عذب رقرق خال عن الأعراض والأمراض والأحقاد، لا يصيبه نصب ولا ظمأ ولا مخمصة ولا يحزنه فزع، ولا يشوب قلبه غلّ، ولا يحمل فؤاد أحد عليه موجدة، دار عجيبة، ورفاق متصافون، وأزواج متحابون.

إن من البعد عن صوت الضمير أن يترك الإنسان مثل هذا الموصوف الذي لا يتقاضى من الثمن إلا ساعات قلل، وصبراً يسيراً، ومخالفة للشهوات التي يغلب عليها كونها تهدد الكيان الفعلي، مثلاً: الخمر تورث الأمراض، والخداع يوجب النفرة، والكذب يُزيل الاعتماد، والزنا بؤرة الزهري، والربا محق للأموال، كما درسنا تاريخ اليهود وغيره وما أشبه.

إن الحياة لا بد وأن ينتهي شوطها، والآمال وإن بدت جساماً أمام عدسة الفكر، لكنها لا تلبث أن تنقلب مألوفة بعد الفوز بها، حتى أن ساكن القصر لا يتذوق من لذته شيء، بعدما كان يُخيل إليه شيء وألف شيء حينما كان يسكن الكوخ، وما إلى ذلك من سائر الملاذ..

فلو فرض أن الداعين إلى الدار الآخرة، أخطأوا، ولم يصيبوا الرمية، لكان هذا الثمن الزهيد قبالة هذا المثلث الذي دعوا إليه، مما يجب إعطاؤه احتمالاً للفوز بالثمن.

أليس الإنسان يخاطر بمال ضئيل تجاه احتمال ربح كبير، وإن كانت النسبة المجوزة للفوز قليلة جداً، بل نراهم يخاطرون بالنفس التي هي أكبر مقومات الحياة، وفي هذا بلاغ لقوم مفكرين.

ألا فمن شاء النجاح فليدخل هذه المدرسة، وإن مضى من عمره ما مضى، فإنها ترحب حتى بالكبير الذي أشرف على التسعين، بشرط أن يصقي ما سبق، ويجدّ فيما لحق، ومن أراد الآخرة فليحسب الخسار المحتمل.

كيف نعمل؟

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت***وليس ينفعك التقويم للحطب

إن الإصلاح في مجتمع اتجه نحو جهة الفساد من أشكال الأمور، فمن يريد الإصلاح في مثل هذا المجتمع، يكون حاله حال من يريد تقويم دوحة معوجة، أو من يريد تعديل شط عظيم، فيعمد الأول إلى فأسه فيقطع أعواداً منها، ويعضدها عضداً، ويأخذ الثاني إناءً يغرف به بعض الماء ليصبه في طرفي الشط، حتى يكون هذين الماعين بضميمة الشط ماءً مستقيماً!! ولو فرض أن هذين العاملين في بعض الأحيان ينفع بعض النفع فإن ذلك ليس إصلاحاً باهراً ونجاحاً مرموقاً، لأن المجتمع الفاسد كالقصر الذي تضعض أساسه، وبلبيت قواعده، فإنه لا يصلح بترميم بعض أساطينه أو تبييض بعض جدرانه.

المجتمع الفاسد يلزم هدمه من أصله، وبناء مجتمع جديد من الأساس، كما أن من يريد أن يشتمل روضه على أشجار مستقيمة يلزم عليه أن يقطع كل ما أعوج من شجره، ويغرس مكانها أشجار أخرى، ومن يريد تقويم الشط احتاج إلى طمّ الشط السابق، وحفر شط جديد مستقيم ومن يريد سكنى قصر فخم، افتقر إلى هدم القصر السابق، وبناء قصر حديث.

هذه طريقة الإصلاح، يعرفها كل بدوي وقروي، في أعماله اليومية، وأثاث داره، وأشجار حقله، وأعواد

كوخه، ولذا نرى أن المصلحين هادمون بانون في وقت واحد.

ومجتمع المسلمين في هذا اليوم كتلك المجتمعات التي لعبت بها أيدي العابثين، فأصبحت تحتاج إلى تجديد من الأساس، ما دام الخمر يتمتع بإجازة من الحكومات، وما دام الخمار لا يُعاقب بعقاب صارم، وما دامت بيوت الدعارة تفتح على رؤوس الأشهاد ولا يُعاقب الزاني، وما دام القمار له مكانة سامية وأندية ودور راقية، وما دام الربا قسم من التعامل لا يتحاشى عنه القانون، وما دام التبرج يتنعم بالحرية، وما دام الحرام مغنماً والزكاة مغرمًا، وما دام البرلمان يشرع القانون على خلاف نصوص القرآن والشرعية، ويتحدى السنة ويقول: (سأنزل أفضل مما أنزل الله)!!

إن المسلمين - ما دامت هذه الأمور باقية - لا يقوم لهم قائم، ولا يرجى لهم مستقبل، ولا يتمكنون من إنقاذ أنفسهم من مخالب إحدى الدول القوية، حيث ترك المسلمون دينهم وقرآنهم وسنتهم، رغبة في المدنية الزاهرة بمصانعها ومعاملها، ونعمها ورفاهها، وعلمها وعلمائها، وسطوتها وقوتها، وحريتها وبهارجها، وأرضها وسمانها، وبحرها وبرها، فلم يفيدوا الأول ولم يستفيدوا من الثاني، أصبحت صحاريهم يباباً، وبلادهم خراباً، وعزهم ذلاً، وقوتهم ضعفاً، وإمبراطوريتهم عبداً، وأخوتهم عداوة، هيهات هيهات أن يرجع إلى المسلمين سوددهم، وأن يتمكنوا من التخلص من هذه الحبال التي اقتنصتهم، والمصيدة التي احتوشتهم، حتى يرجعوا إلى قرآنهم ودينهم وأخلاقهم وكبريائهم.

أول ما يدعو إليه القرآن هو الأخوة التي بها قوتهم، وفيها شوكتهم وإليها مرجعهم، ومنها مصدرهم، فإن شاء المسلمون العزة والنصرة كان عليهم أن يخلعوا ثوب القانون البالي، ويلبسوا ثوب الإسلام القشيب، فلا تشريع ولا قانون، ولا مجلس ولا برلمان، ولا إرادة ملكية، ولا سيطرة أجنبية، ولا عداوة بين بلاد الإسلام، ولا قومية، ولا مبادئ مستوردة.

أما ما يرومه المصلحون في إطار هذه المدنية الزانفة، فأقرب منه مناط الثريا، وسأضرب مثلاً لذلك: (سباق الخيل) الذي ولد في عصر الملوكية في العراق، كان يمتص أموال الشعب امتصاص العلق دماء الجسم، وكان المصلحون يملأون الدنيا صياحاً ونياحاً، بمضرة ذلك، ولم يكن الأمر مما يخفى على المسابقين، فقد رأوا بأمر أعينهم ما جر عليهم من الوبال والخراب، والفساد واليباب، وبالعكس من كل ذلك، فقد كان يزداد عدد المسابقين بصورة هائلة، حتى منعت الحكومة ذلك، وأغلقت قاعة السباق، فرجع الناس إلى ما كانوا، وانتفعوا بما وفره عليهم هذا الحكم من المال، وكذلك حال الخمر والفجور والربا وما إليها.

فإن تمكن المصلح من هدم أساس ذلك هدماً لا مرد له، تغيرت الحالة، وتحسن المجتمع، أما النصيح والوعظ والإنذار والإرشاد، والجنة والجحيم، والعذاب والنعيم بوحدها، فنتيجتها ضعيفة ولم يكن القائل بذلك مغالياً ولا جانراً.

إن المسلمين نهضوا في هذه السنين الأواخر نهضات مباركات، ولم يبق إلا الاتحاد فيما بينهم، واستبدال القانون المستورد بالقرآن، حتى يرجع عزهم ودينهم وديناهم وأخرتهم.. والله المستعان.

المدرسة

يدخل التلميذ المدرسة وقلبه أنقى من اللجين، وأصرح من المرأة، وأصفى من الماء الزلال، وهو مستعد لتلقي كل ما يرد إليه من المعلم أو التلاميذ الحافين به، استعداد الآلة اللاقطة لأخذ أمواج الصوت، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والمعلم أمين على ثقافته وأدبه وأخلاقه وعرضه، وهو أعظم الأمانات بين يديه، مسؤول عن كل ما تنطبع فيه حتى خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، فإنه كالشمع في كفه يقلبه كيف يشاء، ويشكله بما يريد، فإنه مستقى أفكاره، ومنبت عقله، ومغرس نباته، ومنجم جوهره.

وكما أن التلميذ يحتاج إلى علم وثقافة، ليرتقي به عن حضيض الجهلاء إلى أوج العلماء، ويأخذ بيده في مجاهل الكون إلى معالمه، ويهديه سبل الحياة، ويُرِيه النافع من الضار، والجادة عن المهوى، كذلك يحتاج إلى أخلاق وآداب يعيش في ظل شجرها الفيحاء مرفه الخاطر، سعيد البال، مرتاح الضمير، بل احتياجه إلى الأخلاق أكثر، فإن صاحب الخلق المؤدب أسعد عيشاً من صاحب العلم الذي لا أدب له.

إن العلم والأدب كلاهما يهديان إلى الخير، ويُنيران طريق الحياة المظلم، ويُعبدان سبيل البقاء الوعر، لكن العلم لا يُنتفع به إذا لم يقترن بالفضيلة، بل ربما ينقلب العلم جهلاً، والثقافة وبالاً، حيث يزداد حامله كبراً وفخراً، يصغر خذّه، ويُبرز صدره، ويمشي مرحاً، ويهتز فرحاً، فهو كالنهر الذي إن عهده الشخص، بكرّي قراره، وبناء السدود في وجهه انتفع به لروضه وحيوانه، لمأكله ومشربه، ومستحمّه وملبسه، ومضجعه ومنتزهه، وإن أغفل شأنه وتركه يجري لطبيعته، لم ينتفع به، بل ربما انقلب وبالاً وفساداً بالانتشار في الأراضي المنحدرة والتجمع في الوهاد، مما يسبب التعفن والأوبئة، وكثرة البعوض اللاذعة والأمراض المجزعة.

التلميذ إلى ملكة الصدق أحوج منه إلى علم الحساب، وإلى حبّ الخير من الهندسة، وإلى صفة الشجاعة من الفيزياء، وإلى فضيلة العفة من الجغرافيا. الصدق يُعينه فيما لا يُعينه علم، وحب الخير ينفعه فيما لا تنفعه ثقافة، وهو إلى أن يعرف كيف يعاشر أبويه إذا كان في ظلّهما، ويسلك مع زوجه وأولاده إذا نكح وولد، وكيف يتودّد إلى الناس ويتحابب، وكيف يبيع ويشترى، ويرحم ويعطف، أحوج منه إلى معرفة التاريخ والكيمياء والإنشاء والإملاء.

إن التاريخ لم يوضع إلا ليستنتج الشخص نتائج أعمال الماضين، فيأخذ الحسن، ويترك القبيح، ولم تكتب الجغرافيا إلا ليرى وضع البلاد ويعرف صنوف الخلق وأخلاقهم وأعمالهم، كي يأخذ ما ينفعه ويترك ما لا ينفعه، ولم يرقم الحساب إلا ليحسب أمواله فلا يبذر ولا يقتّر، ولم يقنن الهندسة إلا ليتمكن من بناء الدار وشق الأنهار ليسكن تلك برفاه ويستثمر هذا بدعة، فإذا لم ينتفع بهذه العلوم فيما وُضعت له، ولم يهتد بها طريق مشيه في حلّه وترحالها، وانزوانه وعشرفته، وأخذها وعطائه. فحالها أشبه شيء بالأعمى الذي لا يبصر وإن كان يعلم معالم الطريق، ويتمكن من هداية غيره بذكر أوصاف تلك المعالم، ويتردّى هو في بئر أو يهوي به العمى في مكان سحيق.

ثم إن المعلم كما له الرقم الأول من صحة أخلاق التلميذ وفسادها كذلك يشترك في ذلك الآباء والحكومة

والأصدقاء، فلكل منهم سهم، والجميع مسؤولون عن ذلك. المعلم مسؤول عنه في مدرسته، والأب في بيته، والصديق في منزله، والحكومة في مصره ومملكته، وحسن التربية ملقى على عاتق الكل على أنصبه مختلفة وسهام غير متشابهة.

رجال الدين

يرتني زمرة من الناس، أن شأن رجال الدين في المجتمع شأن التمثال الطريف، الذي ينبغي أن لا يمسه الغبار، ولا يدنسه مدنس، ولا يعلق به ما يخدش جسمه، ولا تبلغه أشعة الشمس حتى يتغير لونه، وطلباً لهذه الغاية المتوخاة، وتوفيراً لهذا الجمال، يجب أن يتطرف عن الضوضاء ويتنكب الطريق، ويعتزل اعتزال من قبع في كهف من الكهوف، يأكل رزقه إلى أن يأتيه حتفه، فيحصرون عمله في الدرس والمناظرة، وصلاة الجماعة، وإجابة الأسئلة التي توجه إليه على أن لا تمس مشاعره أبداً، وإذا زادوا على ذلك جوزوا له أخذ بعض الدراهم المفروضة في الشريعة وإعطائها إلى مصارفها مشروطاً بأن يلاحظ عرضه في التقسيم، يولف القلوب بالدينار والدرهم، كما كان يعطي رسول الله (صلى الله عليه وآله) المؤلفة قلوبهم وقد أمره الله تعالى بذلك: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ..)(١).

أما التدخل في الشؤون العامة - سواء ارتبطت بالأمور الدينية أم الأخلاقية أم الاجتماعية أم غيرها - فقد حمي عنها رجل الدين بسياج شانك، وجدار مكهرب، وهو سياج (السياسة) فما أشقها وما ألامها، لا توضع على شيء إلا هدمته من أساسه، ولا اقتربت من عالم إلا ألبسته جلباب البعد عن الحق، والقرب من الباطل، وبهذا يصبح غريباً عن العالم، لا تسمع له كلمة، ولا يستجاب له دعاء، ولا يُسلم عليه، ولا يُجاب إذا سلم، ولو كان من وُسم بهذا الاسم المنحوس، من خالص الدين، وصحيح الأخلاق وصريح الآداب، ونافع الاجتماع، من أجل الصالح العام.

والعامة همج يتبعون كل ناعق، سواء أكان صحيح الغرض أم فاسده، فإذا وسم مغرض عالماً بشيء، فهو الوحي المنزل، الذي لا يتضعض ولا يتزلزل، سامح الله الناس وعفا عنهم، لا أدري لم افترقت الدنيا عن الدين وابتعدت الأخرى عن الأولى ولأي أمر تناكر الشؤون العامة وشؤون الصلاة والدرس والمناظرة، تناكر الأضداد، وتعادي الأتداد، وهل أنزل الله من سلطان يدعم رأي هؤلاء الناس؟ أم وصى بذلك أحد المرسلين؟ أم تأمرهم بذلك أحلامهم؟ أم هم قوم جاهلون؟!

أدري لم تقارب لفظ الدنيا والدين؟ أم تعلم لم تقدم المتقدمون في ميادين الحياة وتأخر المتأخرون؟ ليس تقارب اللفظين إلا لتقارب المعنيين. فالدنيا مزيج بالدين، والدين دخیل في الدنيا تداخل السدى واللحمة، وحيث أن الأولين عملوا على هذا الأساس تقدموا، وعمل المتأخرون في ناحية واحدة وطاروا بجناح واحد ولذا تأخروا، إن المرسلين والأئمة (عليهم السلام) وسائر المصلحين بُعثوا إلى الأمم وتدخلوا في جميع الشؤون، فإن الإصلاح والتهديب يتوقف على التدخل، وكما تحتاج صغار الأمور إلى الإصلاح، تحتاج كبارها إليه.

إن رجال الدين ليسوا من الدين في شيء إلا إذا احتذوا حذو الرسل، وتبعوا الخلفاء والأئمة، وانتهجوا

مناهجهم، وسلوكوا سبلهم، وفعلوا ما فعلوا، وتحملوا ما تحملوا، فقد ضرب الرسل والمصلحون المثل الأعلى للتدخل في الأمور صغيرها وكبيرها، أخلاقيها واجتماعيها، دينيها ودنيويها، ألم يكن إبراهيم (عليه السلام) حارب نمرود بلسانه وجنانه، وناقش الأمة جميعها في معبوداتها، وأخذ طريقاً لنفسه وتبرأ حتى من أقرب الناس إليه، وأوذي في ذلك وشرد وطرد، حتى أسكن أهله بواد غير ذي زرع، وألقي في النار بعدما حكم عليه بالإعدام، إنه كان بنفسه أمة قانتاً، عندما كان معاصروه بأجمعهم أمة أخرى، فكان هو يقابلهم بما فيهم الملك والسوقة، والكبير والصغير، والشريف والحقير، والغني والفقير، ألم يكن هذا تدخلاً في (السياسة) على مصطلح هؤلاء الذين ذكرناهم؟!

ألم يكن موسى (عليه السلام) خالف فرعون، وخلع عبوديته عن رقبته، وأقام عليه الدنيا وأقعداها، ونصحه ووعظه، وأمره وزجره، وكافحه كفاحاً مريراً بلا هوادة ولا فتور، وانتقسه بقوله: (وَإِنِّي لِأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً) (١) وأخذ بني إسرائيل وهم الألوף المؤلفة معه، وقتل من أتباع فرعون من قتل، أليس هذا كله تدخلاً في شؤون الدولة - بداعي الإصلاح - وتعرضاً لأمر الدنيا بحذاقها؟!

أليس عيسى (عليه السلام) حارب الملوك والكبراء بقوله وعمله، فكان (ذي بلاطس) و (هوردس) منه في حذر، وجاهد المرانين من أحبار اليهود ونعتهم بقوله: (يا أولاد الأفاعي) ونحوه، وأخذ يهز كياناتهم ويحطم كبرياءهم، ويفرق شملهم، ويفتد مزاعمهم، حتى صلبوه (بزعمهم)؟ ألا يكون هذا من أروع الأمثلة لتدخل العالم الزاهد العزوف الحصور، في الأمور تدخلاً سافراً، لا يبالى حتى بنفسه، ويوطن نفسه على كل شيء حتى الضرب والصلب؟

ألم يكن محمد (صلى الله عليه وآله) من أعظم الأمثلة للبطولة والعزم والثبات، والاستقامة والإيغال في شؤون الفرد والجماعة، والدولة والملة، تدخلاً في الأفكار والعقائد، والعادات والإرادات، والأخلاق والأعمال، والاقتصاد والاجتماع، وقد قاسى في سبيل إصلاحه من الظلم والعسف، والإرهاق والإرهاب، والضرب والظلم والشتم، تسلفه الألسنة بأبشع الألفاظ، وتزدرية العيون بأفصح الازدراء، حتى قاطعه الناس وقاطعوا أهليه وذويه شر مقاطعة، وشردوه عن عقر داره، وابتعدوا عن جواره؟ أليس في هذا كله ذكرى واعتبار، وعظة وادكار، حتى يحذوه رجال الدين إن أرادوا التهذيب والإصلاح؟

إلى غيرهم من الرسل العظام، والمصلحون الكبار، فإن أفعالهم وأعمالهم وحركاتهم وسكناتهم ليشبه بعضها ببعض، وتجمع كلها في إطار واحد، إطار الوضع والرفع، والمنع والدفع، والدخول والخروج، والابتعاد والازدلاف، لا يلوون على شيء، ولا يبالون بأمر، ولا تأخذهم في مبدأهم لومة لائم، ولا عتب عاتب، مشمراً عن ساق الجد، إلى أن يأتهم الحمام.

فرجل الدين ليس بالتمثال الذي يضره الغبار، ولا بالجسد الذي لا يأكل الطعام، ولا بالزجاج الذي يصدعه الحجر، ولا بالشبح الذي تدميه الشوكة، وتستفزّه الشتمة والتهمة، بل هو المصلح الذي يسب ويهان، وينتقص من قدره، ويُنسب إليه كل شيء من الخيانة، والجنون، وحب العظمة، والسفاهة، والخدعة، وما إليها.

بل لو جد في الإصلاح ولم يساعده جده في البقاء، لضرب وخبس، وصلب وأحرق.

ألم يضرب أمير المؤمنين علي (عليه السلام)؟

ألم يُسم الإمام الحسن (عليه السلام)؟

ألم يقتل الإمام الحسين (عليه السلام)؟

ألم يُصب زيد (عليه السلام) حرق؟

بلى كل ذلك قد كان، وقد كان لهم السبّ المقذع، والإهانة الشنعاء، والاستهزاء والإيذاء، فلم يكن ثانيهم يردعه عن إصلاحه ما يراه فعل بأولهم، ولا يُثني عزمته ما يعلم من أنه سيفعل به كما فعل بمن قبله.

يقال: أن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) لم يتدخل في شأن من الشؤون، وكذلك بعض الهداة من قبله وبعده، لكن الكلام أقرب إلى المغالطة من الحقيقة، فإن الأئمة (عليهم السلام) لو لم يكونوا يأخذون جانب الإصلاح والإصلاح، وكانوا يجرون كما تشتهي السفن، لما عصفت بهم الرياح المسخبة والإعصارات المسممة، ولما نالوا الضيق والتشريد، والوعيد والتهديد، ولما ابتعدوا عن الأوطان، ولما التهمت بيوتهم لهواة النيران، سامح الله القائل: فلماذا يجوز للرجل الديني الصلاة جماعة، والدرس والمناظرة، وأخذ الأخماس والزكوات، وإرشاد الناس في الغدوات والروحات! أليس الإمام السجاد، ومن بعده من هداة العباد، يصلون بانفراد، ولم يكن الإمام الكاظم (عليه السلام) يلقي الدروس، ولا الإمام الرضا (عليه السلام) يأخذ الماديات، إن الأئمة كانوا يعملون حسب محتمل الزمان، فمنهم من يجلس في الدار، ومنهم من يأخذ بالثأر، ومنهم من يلقي الدروس، ومنهم من يسكت ويزج في الحبوس (ولنا برسول الله أسوة حسنة)؟!!

وما أعجب عجب من جماعة كانوا يسرون إلى بعض رجال الدين بعدم التدخل في شأن من شؤون الدولة ولو كان لطلب الدين، فإذا أراد أن يستعطف الأمراء في منع الخمر، أو يستهوي الوزراء لغلغلة باب الفجور، أو يتضرع إليهم لمنع حكرة، أو يستكين لعدم المنع عن حج أو عمرة، جاءوا وحداناً وزرافات ناصحين مشفقين، يزيئون إليه الأعراض، ويتشبهون بكل حشيش لإدخال ما ارتأوه في قلبه، يوصدون عليه أبواب الرجاء، ويفتحون أمامه أبواب الضرر، حتى يثنوه عن عزمه، حفظاً على سمعته واسمه.

الدين

الدين: بغض النظر عن دعوته إلى عالم آخر حافل بما تشتهي الأنفس وتلدّ الأسماع والأعين، يدعو إلى الفضيلة التي لا يدعو إليها أي قانون، ويمهّد سبيل العيش الرغيد، في جو سلام ورفاه، إن الظواهر الاجتماعية الناجمة عن تفاعل القوى الشريرة في النفوس أخذاً وعطاءً، لا تكبحها إلا العقيدة، فهي كقنب الناقة وزمامها اللذين يسهلان امتطاءها.

ينظر بعض الناس من بعد إلى الهالة المحيطة، بزمرة من منتحلي الأديان، فيراها جامدة هامة، لا ينفق منها ضوء، ولا ينبثق منها نور، فيخال الأمر من آثار الدين، لكنه بالعكس من ذلك، فلو نظر إلى الدين بما هو شيء قائم في الفراغ - فرضاً - لرأى أجمل ما رآه في عمره، يلدّ مخبره، ويبهج منظره، يكثر ضوؤه، ويعلو قدره.

الدين: أول مفعوله إيجاد حب الخير، وكرامية الإثم في القلب، ثم لا يزال يربّي هذه الشجرة حتى تورق، وتظهر ثمارها من الحواس.

ثمرته الدين في العين: النظر والمطالعة والاعتبار، والغض عن المزلق والمهاوي.
 وثمرته في الأذن: أن يقف على النافع، ويستعصم عن الضار.
 وثمرته في اللسان: الصدق وقول الحق والعدل، وقصره عن الهمز واللمز والطعن.
 وثمرته في اليدين والرجلين: العمل والسعي والجد.
 وثمرته في القلب: الإخلاص وحسن النية، وقطع دابر الحسد والغل وإضمار الشر.
 من توفرت فيه هذه الثمرات، دلت على العقيدة والدين، ومن انعكست فيه الآية، لم يقبل منه أنه مرتد بهذا الرداء الجميل، يستدل على كل شيء من خواصه، ونظير الدين سائر الأشياء سواءً بسواء.
 أول ما يمنع عنه الدين: الحرب على سبيل الغلبة والسلطان، التي تلفت اليوم أنظار أكثر من نصف سكان هذا الكواكب الأرضي، ثم يتدرج في الضرب على أيدي المستغلين والمحتكرين والمستثمرين والمستعمرين، وبعد هذا وذاك يجعل النظام للشخص في حركته وسكونه، والبيت في جمعه وطرحه، والمدينة في حاكمها ومحكومها، وطبقاتها بعضها مع بعض.
 استبقاء طاقة الدين في قلوب الناس، أنفع من استيراد عدة من الطائرات الحربية أو السلمية، وتثقيف الناس ثقافة سماوية أفضل من تجهيزهم بقوى الذرة والقنبلة الصاروخية والطائرة، وتضييق مسارح الرذيلة عليهم خير من تضيق الحدود الإقليمية والقومية والوطنية، هب أن في الدين ما يراه الإنسان عبئاً ثقيلاً عليه، لكن احتقاب آثام اجتماعية أثقل بأضعاف من أعباء الدين.
 يوسع الدين ناحيتي الحياة العاملة والقابلة، يحرّض الدين على كثرة النكاح والنسل، وقد ضرب حملة أعبائه الأقدمون الرقم القياسي في هذا الشأن، ومن الناحية الثانية يحتم العمل والتعاون، ويحث على العالم كي تتفتح آفاق من القابليات الكائنة في هذه الرقعة الفسيحة ذات الأبعاد الأربعة: الطول والعرض والارتفاع والزمان، وبذلك تحسن الزراعة، وتزهر الصناعة، ويؤتي كل ذي حظ حظه.
 ليس هذا النظام، خير من نظام من يرى تقليل النسل؟ أو يرى جعل حدود قومية أو إقليمية تقلل من المصانع والمزارع، وتكبت النشاط؟ فإن المقيد بقيود مدنية، ليس كالححر المطلق في الأخذ والإعطاء، والقبض والبسط، فعلى الدول أن تكسر نوى طاقة الدين، حتى تخرج منه قوة سالبة موجبة، تسير ركب الحضارة بأسرع من سير الضوء في آفاق الكون.
 لكن أصاب الدين إعصار فيه نار، فكل من ينتحل الدين في هذا الوقت لا ينظر إلى الدين كأمر سماوي، له شطران: جزء لنظام الاجتماع، وآخر لفضائل الروح والمعاد، وكل النظر إلى الدين - هذا اليوم - بما هو مفهوم لدى المنتحل، ثم يقبله عقله وفكره، وطبعاً لا يقبل عقله إلا ما هو موافق لتقاليد وأهوانه وما يدعم مصالحه الشخصية قبل كل شيء، ولذا قام كل أحد يفسر الدين تفسيراً، ورفعت الأغلال عن المفسر، فهو يفسره وإن كان لا يعلم في الحياة شيئاً، ولم يذق من معين الثقافة مذاقة، وما دام باب التأويل واسع، ولا (جمرك) على اللسان، ولا مواخذ على القلم في هذا الأمر، وإن كانت العقوبات الصارمة على القلم في أمر السياسة، ثم بعد ذلك لا يختار من الدين إلا ما يتماشى مع الزمن واقتضته ظروف المتدين! لا يرفع لدين علم، ولا تقوم له قائمة، إلى يوم يبعثون، إلا أن يتدارك الله الدين برحمته، وينقذ الأمة من كابوس الجهل والغرور.
 الدين كانت له الحرية يوم كان الناس مسلمين، أما اليوم وقد أصبحوا أحراراً، فاللزم أن يحاكم الدين، ويزج

في قفص الاتهام، حتى يأتي الله له بمخرج، أو يحكم عليه بالإعدام.

لا يقبل اليوم أحد من الدين ما يريده الدين بل ما يريده هو، فإن كان خلل في الدليل - باعتقاد المنتحل - فهو، وإلا فإن وجد مساعاً للتأويل أول، وإلا فالأمر سهل بعد أن الدين يلزم أن يطابق عمل المتدين، وإلا فليضرب به عرض الحائط! ولذا أصبح الدين كالمطاط يجره هذا إلى هنا، وذلك إلى هناك، وقد عاينت في حياتي القصيرة أموراً متضاربة من منتحلي الدين لا يفي بها وصف، وإذا كنت أدنأ لا أقابل - مهما قدرت - متكلاً بعنف وقسوة، أباح كل مزامل لي ما في قرارة نفسه، وأظهر ما انطوى عليه فؤاده، وأبدى آراءه وأفكاره، ولم يكن لي تلقاء هذه السلسلة من الأفكار إلا مناقشة أدبية، لا تخرج عن نطاق المجادلة بالتي هي أحسن.

رأيت فيما رأيت رجلاً لم يرقه المعاد، ولم يوقن باليوم الآخر، فكان لابد له - بصفته مسلم - أن يؤول ما ورد بهذا الشأن، فيقول: إن العذاب عذاب النفس، والجنة جنة الروح، والنفس بعدما تعدم، يكون نارها ونورها ذكرها الطيب أو الخبيث..

ورجلاً لم يكن يطيعه فكره في قبول الحجاب وحرمة التبرج، فيرتأي أن الحجاب عادة خارجية، دخلت في الإسلام من إبان بعض الخلفاء، ثم يقف على قول القرآن العظيم: (ولا تبرجن) (١)، موقف مأول أو مجمم لا يجد جواباً..

ورجلاً لم يكن يرى حرمة الغناء، لا اجتهداً أو برهاناً، بل شهوة وفكرة، فكان يقول: كل أمر يستحسنه العقل لا يحرمة الدين، فإن الدين يساير العقل، وطبعاً يريد عقل مثله..!

ورجلاً لا يعترف بالمعجز، فكان يرمي مدعيه تارة بالكفر (٢) وأخرى بالجهل والسخافة، وكل نظره أن الأنبياء أناس مصلحون لا يربطهم بالسما لا رابط قلوبهم التي ملئت حناناً وإحساناً..

ورجلاً يرى القوانين الدولية، أفضل من القوانين السماوية، فكان يقول: تلك ليومها وهذا ليومنا..
ورجلاً يرى الدين الأخلاق والآداب فحسب، فكلما ينافي الأخلاق - بزعمه - فليس من الدين، وإن تواترت به النصوص، وكل ما لا ينافي الأخلاق فهو من الدين، وإن حاربه الإسلام بكل قواه.

إلى عشرات من أمثال هؤلاء!!

ليس الدين إلا قانوناً مدنياً أخلاقياً اجتماعياً، يصلح المعاش والمعاد في وقت واحد، وضعه إله السماء حسب المصالح الفردية والاجتماعية، وحيث كان هو العليم بالمصالح، وبما يسعد البشر، فلا سؤال في حكمه، ولا اعتراض عن أمره، ولا يسأل عمل يفعل وهم يسألون، ولا يرجع وبال العصيان وعواقبه إلا إلى الإنسان نفسه، فسيكون كمن عصى أمر الطبيب، فإن المرض يهدد ركني نفسه.

إن من الأمور ما لا مساع للعقل فيه، ولا مدرج للفكر في شأنه كما أن من الأمور ما للعقل فيه مجال، وللفكر فيه مسرح، والدين يضم بين جوانحه الأمرين، فالعقل يدرك مصالح الإعانة والصدق والزكاة والحج والاتحاد والطهارة والخمس والجهاد وما أشبه.. ومفاسد الخيانة والغش والخمر ولحم الخنزير والإسراف والبخل والجبن وما إليها.. ولا يدرك أن صلاة الصبح ركعتان لماذا؟ والسعي سبعة أشواط لأي علة؟ ومن أربعين شاة

١- سورة الأحزاب: ٣٣.

٢- فإذا قيل له: أحى عيسى (عليه السلام) الموتى، قال: هذا كفر بالله وشرك، أما القرآن عنده فباب التأويل فيه واسع! وهكذا..

بالخصوص - لا تسعة وثلاثين - يخرج الفرض لأي سبب؟ وهكذا.

وحيث علمنا أن الدين من إله عالم بخفيات الأمور، لا يريد إلا الصالح، ولا يبغض إلا الفاسد، وعلمنا أن هذا من الدين وذاك، فإن أحببنا خيرنا لزم علينا الاتباع، وأبأونا قد اتبعوا برهة تقرب من ثلاثة عشر قرناً فأروا الخير الكثير، وتركنا ورأينا الضر الجَمَّ (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (١) ونحن لا نريد من الناس التقليد المحض، والاتباع الأعمى، كل ما نريد هو أنه لو عرفوا الطبيب حاذقاً، ورأوا مغبة ترك أقواله، فالواجب عليهم الوقف عند أوامره وزواجره، بدون سؤال عن علة كمية العقاقير، وأنه لماذا يعطي من هذا نصف ذاك؟ ومن عقار عشر غيره؟ ولأي علة يمنع عن طعام شهوي؟ ويحتم شرب دواء مر؟

إن مرجع الدين الكتاب الحكيم والسنة الراشدة، ولا تعرف هاتان إلا من قبل علماء صادقين راسخين في العلم، فلو أحب رجل خير نفسه، واتساق أمر أولاه وأخراه اتبع الدين، وإلا فلا يلوم إلا نفسه، وهو بما كسب رهين.

الدين كما يقيد الفرد في لسانه وبصره، وسمعه وقلبه، وبطنه وشهوته، ويده ورجله، كذلك يقيد المجتمع، فالمسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه (٢)، والمؤمن أخو المؤمن (٣)، ويجب عليه أن يحب لغيره ما يحب لنفسه (٤)، ويكون مرآة غيره يريه زينه وشينه (٥)، والناس إما أخ له في الدين أو نظير له في الخلق (٦)، ويلزم أن يجعل الأكبر منه أباً، والمساوي له أخاً، والأصغر منه ولداً، وأن يبر أباه، ويصل أخاه، ويرحم أبناءه، ولو فسّر الدين بما يشاء الدين، لا بما يشاء التأويل، ولو عمل به كما عمل النبي (صلى الله عليه وآله) وأوصياؤه، ولو انتهج مناهجه، كما مشى عليه المسلمون الأولون، من الصحابة الأخيار، والتابعين لهم بإحسان، لمطرت السماء ذهباً، وأخرجت الأرض دراً وعقياناً، وأصبح أفراد الإنسان أخواناً، وأضحى الأعداء خلأناً.

لكن اليوم يتمثل الدين بقول الشاعر:

أما الديار فإنها كديارهم***وأرى نساء الحي غير نساء

الآراء

صدق من قال: (إن بعدد الأدمغة آراءً، وقدّر اختلاف الأشكال اختلاف المدارك)، فكما أن الناس ذوو ألوان متباينة، وهينات متباعدة وإن اجتمع الجميع في التشابه، كذلك لكل فرد فكر وحجى غير فكر الآخر وحجاءه، فترى الأخ يخالف أخاف في المذهب والطريقة، والابن يضاد أباه في المرمى والروية، والزوج يرتأي غير ما

١- سورة النحل: ١١٨.

٢- راجع مكارم الأخلاق: ص ٣٨٤.

٣- الاختصاص: ص ٢٧.

٤- الخصال: ص ٣٥١ ح ٢٢٧ للمؤمن على المؤمن سبعة حقوق.

٥- راجع الخصال: ص ٣٥١ ح ٢٢٧ للمؤمن على المؤمن سبعة حقوق.

٦- نهج البلاغة: الكتاب ٥٣، عهد أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى مالك الأشتر حين ولاه على مصر.

ترتأي زوجته، والحاكم لا يوافق المتداعيين في كيفية النظر.. ومهما حصلت الوحدة الفكرية بين اثنين فإن هناك لابد وأن يكون بينهما خلاف في الحدود والخصوصيات!

وأغرب من هذا كله أن فرداً يرى الحق في جانبه، ويخيل إليه أن الأدلة تعضد فكرته، ويظهر هذا الاختلاف في كثير من أعمال الناس، وطور سلوكهم، فهذا يختار الكسب، وذاك يرتضي العلم، ثم لا يقتنع أصحاب كل من هذين الأمرين بالسير في طريق واحد، وانتهاج طريق فقط، بل يختار فرد الطب، وآخر الهندسة، وثالث الجغرافيا، ورابع علم الدين وخامس علم الفلك وهكذا.. ويجتبي أحد مختاري الكسب البناء، وثان التجارة، وثالث الزراعة، ورابع النجارة، وخامس الصناعة، وهكذا.. وتبدو اختلاف الفكر في اللباس والمسكن والمركب والمنتزه وما إليها..

إن اختلاف الآراء بحدود معينة لا شك وأنه من أفضل نعم الله على خلقه، وخير ما جهز به البشر، وإلا اختل النظام، وكان حال الإنسان حال الوحش الذي يسكن في القفار والغاب، فلو اختار كل الناس علم الطب لم يجدوا دوراً وقصوراً وتكنناً ومسكناً، ولو ارتضى كل فرد الكسب والتجارة، مات المرضى، وفشت الأوبئة الفتاك، ولو اجتبي الكل اللون الأبيض - مثلاً - لاضمحت الألوان الأخرى، ووقف مغرسها ومصنعها وعاملها وبائعها عن العمل، وفي ذلك شلل عضو من أعضاء الكون!!

إن اختلاف الآراء كاختلاف الأعضاء، فكما أن الإنسان يحتاج إلى عين يبصر بها، وأذن يسمع بها، ولسان يتكلم، وأنف يشم بها، ويد يبطش بها، وقلب وكبد ورئة ومعى.. كذلك الإنسان يحتاج إلى شخص يرتأي الكسب، وآخر يختار العلم، وثالث يحب الإمارة.. وكما أنه لو كان الإنسان ذا حاسة واحدة بطلت سائر الحواس، وانهى الاجتماع، كذلك لو كان المجتمع الإنساني ذا رأي واحد، وفكر فرد، لانهار النظام، وصار العمران يباباً، والبلدان خراباً.

لكن هناك شيء واحد، وهو أنه يلزم حفظ حدود الآراء في إطار صالح، فإنه لا شك أن الآراء قد تغطي، فتذهب نحو الإيجاب إلى خارج حدود المصالح، أو تنكس إلى جهة السلب إلى حيث تخرج عن الخير إلى الشر. مثلاً: حسن حفظ الذات، إذا خرج نحو الإيجاب عن حدوده وكان وبالاً على الآخرين، فإن من يريد حفظ ذاته مطلقاً، يغش ويحتكر ويؤذي ويظلم وما إليها، وإذا خرج نحو السلب عن إطاره، لكان وبالاً على النفس فإن من لا يبالي بحفظ ذاته، لا يأكل قدر قوام جسمه، ولا يكسب لإقامة صلبه، ولا يتعب لأهله وذويه، وكذلك لو خرجت نظرة الشجاعة عن حدودها، انقلبت تهوراً، في جانب الإفراط، وجبناً وخوراً، في جانب التفريط.

والغالب أن الشرائع السماوية، والقوانين المدنية تسترعي هذه الناحية بكل اهتمام، وإنما هناك فرق بين الشريعتين: فإن الأولى تخلق في النفس فكرة حفظ الحدود، حتى يكون للنفس من ذاتها حافظ، يحرسها حتى في أضيق المسالك، وأخرج المواقف، ولذا نرى أهميتها البالغة بجانب الأخلاق الفردية والعائلية والمدنية، وليس كذلك القانون المدني، فإنه لا يعني نحو الوازع النفسي عنايته نحو الاجتماع، ولهذا السبب نفسه يكون الدين السماوي قانوناً وإجراءً في وقت واحد، بينما القانون الذي يضعه المجلس، أو البرلمان، يعوزه الإجراء الذاتي. ثم إن الآراء تفترق في ناحية مهمة جداً، وهي ناحية التركيز والاستقامة، والتزلزل والاعوجاج، إن هناك أناساً جبلت آراؤهم زائفة مائلة عن القصد، لا تزيد بها التجربة والاختبار إلا ميلاً وانحرافاً، ومثل هذه الآراء مثل القاذورة التي لا تزيد بها الرياح إلا نتناً وعفونة، ونحن لا نتكلم في هذه الآراء، وإنما الكلام في القسم الثاني

منها: وهي الآراء التي هي كالأغصان الرطبة، إذا توفرت لها شروط التربية والمحافظة، اعتدلت وأينعت، وأورقت، وأثمرت، وهذا النمو هو الطابع الغالب على الآراء.

ويتربى هذا النحو من الرأي في ظلال ملاحظة الآراء المختلفة، والأفكار المتضاربة، فكما أن من يرى الألوان الكثيرة اختار أجودها، ولو لم يرقه أحدها، ابتكر مزيجاً منها، يكون أبهج وأنضر من الألوان البسيطة، كذلك من يطالع الأفكار المختلفة، لابد وأن يختار إما الأشد منها، وإما أن يخترع رأياً غيرها يستمد من خلط بعضها ببعض، وأخذ جذور مختلفة تنتج ثمرة شهية.

وكما كانت مطالعات الفرد في الآراء أكثر، يكون نظره أحسن، وثمره أنضج، إن المهندس الذي يصرف عمراً في ملاحظة دور وقصور، وشوارع ونواطح، لابد وأن تكون هندسته أجمل، وبنائه آنق، والطبيب الذي يباشر مرضى، ويعالج أمراضاً، يكون - بلا شك - ذا حذق وخبرة لا يوجدان في من لم يعمل عمله ولم يراجع الناس بقدر ما راجعوه، والحاكم الذي تكثر عنده الدعاوى، وتتوفر لديه الشكايات، يكون علمه بالقضاء، وتمكنه من تمييز الحق عن الباطل، أكثر من غيره.

وعلى هذا فمن المفضل لكل فرد أن يكثُر من مراجعة آراء كبار المفكرين، كل بحسبه، فإن كان دينياً نظر في الأديان والملل، وإن كان سياسياً طالع أعمال السياسيين، ونظر في كتب السلاطين وتواريخ الأمراء والملوك، والوزراء والساسة، وإن كان مخترعاً لاحظ الاختراعات، وعمل في ضوء أعمالهم، وإن كان كاتباً، أكثر من مطالعة مقالات الكتاب، واستحصل لب ما ارتأوه في منهج الكتابة والبيان، وبهذا يكون كمن غرس فسيلاً، وسقاه الماء، ووفر فيه شرائط الصلاح والنتاج، ثم بعد ذلك فوض أمره إلى الله، فإما أن يوفق لما يرومه من الصالح، ولا خير أفضل منه، وإما تحول المقادير دونه، فلا يكون أمام ضميره ملوماً.

نعم الرأي قائد إذا صلح، وبنس القائد الرأي إذا فسد، فهو كالماء إن استعملته بقدر انتفعت به، وإن أفرطت فيه ضرك ولا ثلام إلا من قبل نفسك.

الدين والمدنية

أمران تاريخيان يتسابقان، فقد يكون لهذا الفوز، وقد يكون لذاك، هما: الدين والمدنية، فقد تتقدم هذه في حقول الحياة فتضيق العضلات في إطار من الأعباء والقيود، وقد يتقدم ذاك فيكسر الغل ويخرج إلى رحب الفضاء الواسع، لكن هذا القول لدى التحليل ناشئ عن عدم دراسة الأمرين دراسة كافية عميقة، وإلا فالدين الصحيح والعلم الغائر لا يتناطحان، بل - بالرغم من مزاعم بعض أنصار الأمرين المتطرفين - يتلازمان ويتعانقان؟

لكن أغلب الظن أن معظم النزاع الواقع بين منتحلي الأمرين إنما كان بين أصحاب القداسة البابوية، وأصحاب الفضيلة العلمية الاختراعية، حيث إن الأولين يرون الدنيا بما فيها من فضاء واسع، ومواد غزيرة وقف لمعلوماتهم الضئيلة، ولذا أقاموا الدنيا وأقعدوها على رجال العلم الأولين الذين أرادوا التخطي من أغلالهم نحو الحقيقة الملموسة، ولذلك شاهد وألف شاهد، والآخرين يرتنون أن الحقيقة لا تتقيد بقيد الكتاب المقدس ولا الباب الأعظم، مهما قدر الثاني على الأخذ بأطراف السيادة.

وهذا بخلاف دين الإسلام ذي الصدر الرحب، والفؤاد الفانض حرارة وتحققاً، فإنه يدعو إلى العلم جهده، حتى أنه لا يقبل من معتنقيه أن يأخذوه تقليداً أعمى، بينما نرى أن الباب أصدر ورقة الحرمان لمن أراد ترجمة الكتاب المقدس في بدء الأمر، فكيف بالعلم، وهكذا يرد العلم الأشعة إلى الإسلام - مكافئة بالمثل - فيؤيد مبادئه. ولذا نرى، بينما خلع نير الدين المسيحي كثير من معتنقيه عن رقابهم، وأخذوا يعتنقون الإسلام، ويطرون مناهجه بقرآنه وسنته، بالرغم من كثرة ما وصمه تجار الأديان من النصارى وغيرهم بنبي الإسلام وداستيره، ولا يتبادر إلى ذهن قارئ إنني أريد الحوم حول كرامة السيد المسيح.. كما لا أريد الانتقاص من قدر الكتاب المقدس المنزل من السماء بتوراته وإنجيله، فإن الذي دعمه البرهان أن هذا الكتاب لا يطابق ذلك الكتاب، فقد عرض عليه عارض التطور لأسباب شتى، بل غاية المرمى أن العلم لا يستوحش من عدم مساهمة الدين النصراني معه، بعد ما أدرك أنه لا يخلو عن أصابع لاعبة.

العلم والدين الصحيح كفيلاّن بإسعاد المجتمع، أحدهما من الناحية الروحية، والآخر من الناحية المادية، والمجتمع لا يطير إلا بهذين الجناحين، فلو قال الدين: أعتقد بآله قوي خلق وقدر، وبرسول كان على خلق عظيم، وبخلفاء دعوا إلى الفضيلة والصلاح، وبيوم يحاسب الخلاق على أعمالهم، ليس موقف العلم منه إلا موقف المستقبل الجدلان. ولو قال العلم: يلزم النظر والبحث والتعاون والتقدم وما إلى ذلك، رحب به الدين كل ترحيب، ورأى ضالته المنشودة، وهكذا يتخطى الدين والعلم سواء بسواء.

هناك نقاط وضعت على ألواح الدين أو العلم، أخذها أصحاب كل من المتمزتين الذين لا يحبون إلا الدين المنحوت، أو العلم الموهوم! من أشد الأسلحة لإيقاع المحاربة التي لا هوادة لها بين الدين والعلم، فيؤاخذ أصحاب العلم الموهوم على الدين: قانون الرق، وحكم الحجاب، وشريعة التماثيل، وحلق اللحية، وما إليها مما لا يجاوز الأصابع.. من سينات الدين، كما يؤخذ المتمزتون من أصحاب الدين على العلم: القول بكروية الأرض، وبخارية المطر، ودوران الأرض حول نفسها، وما انتحى هذا المنحى، لكن هذا سلاح يحتاج إلى ظلام، كي لا يفضح المتسلحون به، إذا طرد موكب النهار الليل البهيم.

إن الرقّ بحدوده المجعولة في الشريعة - وأقصد بها الإسلام - لا يكون إلا لقمة سائغة للعلم، فمن لاحظ منبع الرق، وحالاته التي يضطر الدين إلى أخذها - التي هي كحالات أخذ الدول للأسرى من الدول الأخرى - ثم قاس بين أسير الدين وأسير الدول في الأحكام المقررة، ثم نظر إلى مدى احترام الأرقاء ومدة رقبهم وأسباب عتقهم، وجد السلاح المزعوم من أفضل أسباب الرفاه للسادة والعبيد، ومن المعلوم أن القصد هنا ما تقوله الشريعة، وعمل به النبي (صلى الله عليه وآله) والتابعين له بإحسان، لا ما نجم عن أفعال زمرة من متقمصي الخلافة والإمارة غير الشرعيين.

والحجاب ليس إلا صيانة عن العهر والفحشاء، وحفظاً للأنساب ووقاية عن الأمراض، ثم توزيع النساء على الرجال توزيعاً عادلاً، لا يظلم أحد الطرفين، ومن لاحظ سجلات الشقاق والطلاق، والعزوبة والنكاح، وقارن بين الأمة المتحجبة، وأمة سافرة لرأى مدى صدق ما ذكرناه، ثم أن الحجاب بحدوده الشرعية لا ما يضيف إليه المتمزمت، ولا ما ينقص عنه الخليع عند التعمق ينبغي أن يتسلح به العلم والدين معاً، لا أن يؤاخذ به العلم على الدين.

والتماثيل وحلق اللحية ليسا بهذه المثابة من المدنية، كما لا يؤيدهما العلم تمام التأييد، بل الأمر بالعكس فإنه

إنما يتلقى تأييداً من رجال الترف، وإلا فالعلم أدرك مضاره، أضف إلى ذلك كله: أن رجال العلم يختلفون، فمن موافق لنظرية الدين ومخالف لها، ومسائل الخلاف لا تصلح أن تكون سلاحاً على الآخرين، ولو تماشى أحد مع هذا العلم المزيف وفرضه حقاً لا مرية فيه، فالدين في مندوحة إذ الاختلاف في مسألة أو مسائل مع الصداقة التامة في غالب الموضوعات الساحقة، لا يوجب اختلافاً جوهرياً.

وأما ما يأخذه الدين - المزعوم - على العلم فليس إلا وليد التخرص غالباً، فقد أثبت غير واحد من علماء الإسلام المعاصرين أن الدين يؤيد العلم في مكتشفاته المبنية على التحقيق والدقة.

ونحن في هذه الكلمة الموجزة لا نريد إقامة البرهان على التوافق التام، فإن ذلك يحتاج إلى مجلد ضخم أو مجلدات، بل المرمى إثبات أن العلم إنما ينتفع في عالم الماديات فحسب، والدين الشيء الوحيد الذي يحافظ على الفضيلة الروحية، فلا غنى عن العلم من الدين، ولا غنى من الدين عن العلم وإن هذا المهوى الذي حدث بين الموضوعين من منسوجات الجهل، فلا الدين يهزأ بالعلم، ولا العلم ينفر من الدين.

إن على الحكومات التي تحب الفضيلة أن تقرر منهج الدين في مناهج العلم، كي يطير البشر بجناح العلم والفضيلة، والمدنية والدين، في وقت واحد.

وأخيراً: الدين يدعو إلى العلم.. والعلم يدعو إلى الدين.. وليس علم يناقض الدين إلا جهلاً، ولا دين يناقض العلم إلا خيلاً.

الحرب

أسفي على الإنسان، ما أقل بصيرته، وأضيق قلبه، وأوسع حرصه، وأميل عقله!!

أسفي على مواهبه العظيمة، كيف يصرفها؟! وعلى ثقافته الجمّة، كيف يحرقها؟! وعلى علومه الكثيرة، أنى يدفنها؟! وعلى مخترعاته الموفورة، أين يقبرها؟!

أسفي عليه، عالماً جاهلاً، وبصيراً أعشى، وغنياً فقيراً، وقديراً عاجزاً!!

ما أقسى قلب الإنسان وأرحمه، وأوسع وأضيقه، وأرفعه وأضعفه، لا أعجب من هذه الكتلة المؤلفة من لحم ودم وعظم، يخلق حيناً في الفضاء حتى تخال أنه يناطح الكوكب الزاهر أو سديماً آخر، ثم بعد حين يراه الراءون وقد أسف إسفاف الطائر المهيب حتى لا يكاد يتحرك فكيف بالطيران.

لم يزل العلم يرقى رقىاً مذهشاً، حتى خاط الأرض بالسماء والتراب بالماء، وأخذ يركب متن الهواء، كما يركب مناكب الغبراء، نفذ في باطن الذرة ومرق عن مجرة قطرها مليون سنة ضوئية، لكن المؤسف أن علمه انقلب وبالأعلى عليه، فأخذ يساير (موكب الدمار) موكب الحضارة، بل ذهب أمامه خطوات واسعات.

فإن بنى المستشفيات، وكشف جراثيم عصت على العين منذ زمن سحيق، وعالج القلب بما يكاد يلحق بالمعجز.. وصنع القنبلة الطائرة، والقنبلة الصاروخية التي وزنها - كما قال تشرشل - مائة طن، وبينما أراد علاج مصدوع، دمر مدناً وأناساً.

وبينما اكتشف الكهرباء لراحة يوم أو بعض يوم، ألقى المجروحين والمصابين في قرن من العذاب الأليم.. يرتق فتراً، ثم يفتق شبراً!.

عالم بالذرة، جاهل بمساقط نفعها وضررها، والآلة يستعملها في الضر أكثر من استعمالها في النفع، بصير بمنافع النفط والفحم والغاز، أعشى بموارد استعمالها، فيستعملها بدل جلب الراحة والهناء، للدمار والفناء، غني بالعلم الذي لم يزل يشير إليه بالتقدم، فقير إلى ذكاء يرشده إلى مواقع الحتف.

والأشدّ ألماً أنه يسقط في تلك سقوط الأعمى في البئر، قدير عجيب في كشف اللثام عن الأشعة السينية، والرادار، والبروتون، عاجز عن أن يحفظ أعصابه تجاه تيار من الغضب، أو الحسد والأنانية، أو حب الظهور والسلطة.

ولو فرض الإغماض عن كل سينة من سينات الإنسان على كثرتها وتشعب طرقها، لم يكن للإغماض عن حروبه مجال، الحرب كلمة قصيرة جداً لكنها حملت أضخم المعاني وأقساها، كأن أشعة الرحمة لم تعرف لفؤاد هذه اللفظة أي مسرب، وهذه اللغة بالرغم من قسوتها وجدت في قاموس الدول أرحب مسرح، كأنها لفظة الجنة التي وعد المتقون، فترى أن كبار الدول وصغارها في صف واحد تجاه إثارة مادة هذه الصورة المشوهة، ثم إفراغها في قالب الوجود بمجرد منافسة، أو تجارة، أو كلمة تغضب هذه أو لا تروق تلك.

طالت الحرب بين فرنسا وبريطانية مائة سنة، واستغرقت الحرب العالمية الأولى خمس سنوات، وطوت الحرب العالمية الثانية سبع سنين وكل حرب يعمّ خرابها، ويشمل ضررها، ويهلك البلاد والعباد، ويدمر كل رطب ويابس.

وبعدما نفّضت الأرض تراب الحرب العالمية الثانية، اتخذت كل دولة أهبتها لحرب أخرى، فبدلاً من أن تصنع المعامل مواد الغذاء واللباس، والمسكن، ترى أفرانها مستعمرة لصنع الدبابات والقنابل والمدافع!! عجيب أمر الإنسان جداً، ألسنا كلنا عائلة واحدة، والأرض دار واحدة، والمعادن والنباتات والحيوانات، ومتمن الهواء وظهر الماء كلها في خدمة هذه العائلة بدون بخل أو تقتير؟ ألسنا لو عرفنا كيفية الإنتاج من هذه الثروات وكيفية التوزيع بين الأفراد بالعدالة والإخاء، وكيفية الزواج والاستيلاء، لأصبحت كل دولة معمورة بالمال والولد، وعند الله المزيد؟!!

إن العلماء قدروا طاقة هذا البشر بما تكفي لجعل غذاء الألفين وخمسمائة مليون من البشر الذين يعيشون فعلاً في هذا الكوكب الأرضي (١) - بطرق التحسين - قدراً يكفي لخمس عشرة ألف مليون. كما قدروا إمكان تصبير هذه الكمية من الأفراد إلى ستة آلاف مليون، كل ذلك في مدة قصيرة، كما يقوله (أفاق لا تحد).

أليس بعد هذا وذاك يكون من الحمق والسفاهة تبديل هذه الطاقة الخيرة، بطاقة شريرة تجعل الألفين والخمسمائة ألفاً أو نحوهم؟! وبهذه النسبة أو برقم أكبر إهباط مرافه العيش؟!!

ما أغربك أيها إنسان! تتعجب من وحش يفترس فريسته لشبع بطنه، وتنسب إلى القساوة من لا يمدّ يده إلى فقير أوقعه بؤسه، ثم تصنع قنبلة زنتها مائة طن، تدمر كل شيء، وتفتك بكل أحد، وفيهم المجرم والبريء، والطفل الصغير والشيخ الكبير، والعالم العبقرى، والمخترع المقتدر. ولو جمعنا جميع من افترسه الحيوان من أول عمر الأرض إلى هذا الحال لما بلغ عشر معشار ما دمرته حرب، وأهلكته أنانية شرذمة، ابتغاء السلطة الموهومة.

١- وقد صرحت الإحصاءات الأخيرة بأن نفوس البشر بلغت ستة مليارات، عام ٢٠٠٠م.

الحرب بإطار أدبي في سبيل الفضيلة مما لا بد منها، لكن هذه الحروب القاسية نسبتها إلى الوحش ظلم للوحش حقاً! أيها الإنسان العاتي كل شيء من أرض وسماء وبحر وماء يمد إليك يد الضراعة ويسألك الكف عن الحرب، الذي أنت نفسك بدورك لا ترى لها مبرراً عقلياً.

يقول الروض: ارحم أشجاري وأطياري، وأزهاري وأنواري، وجدولي وأنهاري، وعشبي وظلي، ومنظري ومخبري..

ويقول البحر: ارحم نباتي وأسماكي، ومعادني وأصدافي، ودري ومرجاني..

وتقول الأرض: ارحم مدني الجميلة، ومناكبي المعبدة، ومناخي اللطيف، وأنسي بمن يعمرني..

ويقول الحيوان: ارحم سابق عهدي، وما استثمرته مني: شائي وبقري، غزالي ويحموري، قطي وكلبي، صادحي وباغمي..

ويقول الإنسان: ارحم قوامي اللطيف، وهندامي الظريف، وعلمي وفهمي، ومخترعي ومكتشفي، وولدي الرضيع، وشيخي الصريع، وتذكر ما أسديته إليك من الرفاه، وما طردته عنك من الأتعاب، أمن النصف أن يقابل الإنسان كل هذه الضراعات بقساوة وأنانية؟

إن الشريعة السماوية: من مجوسية ويهودية ونصرانية وإسلام، والشريعة القانونية، والشريعة الإنسانية كلها تأبى هذه الحروب الوحشية، وكلها تنادي نداءً واحداً ضد الدمار والهلاك في سبيل المزعوم، كلها تقول: أيها الإنسان ارحم نفسك التي بين جنبيك أن تزهقها، وحواسك التي تستعين بها في حوائجك أن تذهب بها، ومنظرك البهيج أن تشوّهه، وسمعتك وتاريخ حياتك أن لا تسمها بسمه العار والشنار، والهمجية والوحشية، ومدنك الأنيقة أن تدمرها، ومصانعك الضخمة أن تجعلها خراباً، ورياضك النظرة أن تجعلها يباباً، وبالجملة - إن كنت إنساناً في ضميرك كما أنت إنسان في صورتك - فلا تفضل برد العدم، ورهبة الموت على دفع الوجود، وألفة الحياة.

ولكن هل تسمع هذه الضراعات روسيا وأمريكا.. وفرنسا وإنكلترا.. وألمانيا وإيطاليا.. وغيرها وغيرها؟!!

رضا الناس

رضا الناس لا يُملك، ومن السفاهة أن يطلب الشخص مرضاتهم، إن الناس خلقوا وكلّ يباين الآخر في الطريقة، ويضاده في الفكرة، فهذا يحسن شيئاً، بينما الآخر يقبحه، ورجل يفضل أمراً، في حين أن الثاني يفضل عليه غيره، فيكون مرتاد رضاهم كالكرة التي يطرحها هذا لذلك، فإذا لقفها الآخر لا تلبث في يده، حتى يرميها نحو الآخر، وهكذا دواليك.. وبهذا قد خسر رضا الناس ورضا نفسه دفعة واحدة، ومهما عمل الإنسان من خير وشر، وحسنة وسينة، فإن بعض الناس يناله بلسانه، ويزدري عليه عمله، وقديماً قيل: لا يسلم أحد من ألسنة الناس.

فإن اقتصد في المال، قيل: بخيل، وإن جاد، قيل: مسرف، وإن أقدم على المخاوف، قيل: متهور، وإن أحجم عنها، قيل: جبان، وإن تواضع، قيل: مبتذل، وإن ترفع، قيل: متكبر، وإن قلل من الكلام قيل: به عي، وإن أكثر، قيل: به ثرثرة، وإن غني، قيل: يشمخ بأنفه، وإن افتقر، قيل: يبحث عن حتفه بظلفه، وإن رام معالي الأمور،

قيل: يحب الظهور، وإن لم يرُمها، قيل: دنيء الهمة، وإن ظرف، قيل: مهذار، وإن سكت، قيل: متجهّم، وإن قام بالإصلاح، قيل: فيه جنون العظمة، وإن لم يقم، قيل: لا يقوم بالتكليف، وإن تعلم، قيل: مراني، وإن جهل قيل: كسول، حتى أنه إذا نزل عليه الذكر الحكيم، قيل: لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم؟! وقد ضرب لقمان لابنه مثلاً رائعاً - فيما يحكى - وكان حينذاك سائراً مع ولده يسوق حماره إلى مزرعته، فقال لابنه: أي بني، إن الشخص لا يسلم من لسان الناس، فقال له الولد: وكيف ذاك يا أبه؟ قال لقمان: الآن أتيك بتجربة:

ثم ركب هو حماره وأمر ولده بأن يردفه، فما سارا شيئاً، حتى قال الناس: ما أقسى هذا الشيخ، إنه يركب هو وولده حماراً ضعيفاً، لا طاقة له بهما.

فبقي لقمان راكباً، وأنزل ولده من على الحمار، وما أن سارا - هذا راكباً، وذاك راكباً - حتى مرّاً بملأ، ولما نظروا إليهما، قالوا: ما أظلم هذا الشيخ، إنه يركب الحمار، وولده يسير راكباً مع أن الولد أحق بالركوب، لأنه فلذة كبده، وإنه لا يقوى ما يتحمل الكبير!

فعكس لقمان الأمر: فنزل هو، وأركب ولده، فما سارا شيئاً، حتى مرّاً بقوم، فقالوا: ما أحق هذا الشيخ، لا يؤذّب ولده صغيراً، حتى ينتفع به كبيراً، إنه يجرّنه على الركوب، ويبقى هذا الشيخ الضعيف الوالد، راكباً! فأنزل لقمان ولده عن الحمار، وسارا كلاهما راكباً، والحمار قدامهما، فما أن مرّاً بجماعة حتى قالوا: ما أسفه هذا الشيخ، إن الحمار خلق للركوب، فيمشي هو، ويتعب ولده، ويجعل الحمار بلا راكب.

حقاً أصاب لقمان في تصوير المطلب، والناس في جميع الأزمنة والأمكنة يشابه بعضهم بعضاً، والغر الغافل يصيخ إلى مقالهم، والنبية العاقل من يختار الطريقة المثلى، والصراط المستقيم، فيسير عليه، لا يلوي على شيء مما يقال فيه، ولقد جربت هذا الأمر بنفسى، فقد كنت أعمل عملاً أراه صواباً، فيأتيني جمع يباركون صفقتي، ويطرون فكرتي، ويمدحوني مخلصاً، ويشكرون لي صنيعي، وهناك أقوام آخرون يؤتى إلي بكلامهم، أو يأتي إلي بعضهم في لسان ناصح، وهم - فيما أعلم - بين مخلص يعتقد ما يقول، ومغرض حرّكه غرضه، فيذمون عملي، وينصحوني بتركه.

وقد يزعم بعض الناس: أن كل من يخالف رأيهم، ويبين مسلكتهم فهو مغرض خبيث، لكن الأمر ليس على ما زعموا، فإنه وإن كان في الناس أعداء حاسدون، إلا أن جميعهم ليسوا كذلك، وإنما الاختلاف، باختلاف المدارك، فكما أن أحدهم يختار المدينة، والآخر الريف، وبعضهم يهش للربيع، وبعض للخريف، كذلك يصطفي أحدهم فعلاً، والآخر ضده، ويجتبي شخص عملاً، والآخر نده، وعلى الإنسان أن يسلك ما يراه صواباً، وإن رآه غيره خطأ وعذاباً، ولو ترك صوابه إلى خطأ يرتضيه غيره، فقد الصواب والرضا في وقت واحد.

سوء الأخلاق

من الناس من يستخفه الغضب، ويستنهضه النصب، ويخرجه الكد عن حاله، والجوع والعطش عن عادته، فتراه - في الأغلب - عابس الوجه كاشراً، وكاسف اللون باسراً، فيتهجّم في وجه زوجته، وينهر ولده، ويجبه صديقه، ويهرّ في وجه وديده، فيكون كما قال الشاعر:

فأقبل مغتاضاً كأنني واطر***له ذو كلاح باسر الوجه قاطبه

فإن أصابته سينة عيس وبسر، وإن ألم به مرض كالج واكفهر، وإن نيل منه سبّ وشتم، وإن سأل منه سائل زبره، وإن طلب طالب منه شيئاً نهره، وإن جاع لم يكلم، وإن غضب لم يفهم، يصيح صياح المجانين، ويلغم لغم البعير إذا هاج، فصديقه منه في تعب، وأهله منه في نصب، ولو اقتعد مقعداً رفيعاً، أو صار رئيساً مطاعاً - فالعياذ بالله منه - يلقي مراجعيه ببسارة، ويطرد مرؤوسيه بتجبه، ولو فر منه فار إلى بعض المجاهل، لم يكن ملوماً.

وبالعكس من هذا، الحليم الرزين، والحصيف المتين، والبشوش الضحوك، فأهله يلقون منه بشراً، وأصدقائه ظرافة، يتهلل للسؤال، ويهتز فرحاً بالنزال، ويرى الرائي فيه دماثة وبشاشة، والطالب إشراقاً وهشاشة، نفسه منه في راحة، والناس في كنفه كأنهم في واحة، يكثر صديقه، ويقل عدوه، ويتسع جانبه، ويضأل مجانبه.

ولو سبرنا أغوار الناس لوجدناهم أحد اثنين: إما أن يكون سيئ الأخلاق طبعاً، وهم قليلون وعليهم أن يفكروا في ما تجلب عليهم أخلاقهم هذه، من الويلات، وجشوبة الحياة، ثم يلتزموا البشاشة والتهلل في كل حركة وسكون، وقيام وقعود، وجينة وذهاب، حتى يكون التخلق خلقاً، والتطبع طبعاً، والفضيلة ملكة، فإن النفس كالصفحة، إذا نقشت فيها عكوس وتصاوير، صعب زوالها، لكنها لو عولجت بأدوية ومحلولات، أزيلت، وأمكن أن ينقش فيها نقش آخر، ويلون بلون غير الأول، وربما كان سوء الخلق من جراء مرض، أو ضعف عصب، فاللازم أن يعالجه معالجة المرضى، ويراجع الأطباء.

وأما أن يكون انتحل سوء الخلق انتحالاً، وادعاه ادعاءً، فهو يقطب وجهه، مع أن نفسه بخلاف ذلك، ويسبب عرسه، مع أن ضميره يخالفه، ويضرب وخلده لا يرضى، ويرفس وفؤاده ينهي، فليعلم أنه لو كان صاحب مقام وجاه، ومنصب ومرتبة، فسوء الخلق لا يرفعه بل يضعه، ولا يُسميه بل يخفضه، ولا يزيده عزاً وشرفاً، ولا رتبة وجاهاً، وكثيراً ما يوجب سوء خلقه إنزاله عن منصبه، وزحزحته عن كرسيه، فإنه لا يفتأ مقطباً حتى يملئه مراجعوه، فيسعون في قلعه، كي يجلس مجلسه غيره، ممن يهش ويبش، ويتهلل ويشرق، ويطيب الكلام، ويكثر الاحترام.. وإن كان من أوساط الناس، فليعلم أنه لابد له من العيش بين بني نوعه: من زوج وولد، وصديق وعشير، وحبیب و خليل، وبائع ومشتري، وكلما رأى هؤلاء منه كلاحاً وبسراً، تفرقوا عنه وانفضوا من حوله، فلا يبيع له بائع، ولا يشتري منه مشتري، ويمله خليله، ويبرم منه وديده، ويستنقله أهله وولده، حتى يصبح فريداً يفر منه حتى ظله، كيوم ولدته أمه، ولو أطاب المقال، واختار الخلق الأمثل، أحبه الناس، قريبتهم وبعيدهم، كبيرهم وصغيرهم، فيتألق نجمه، ويكثر أوداؤه، ويستريح بآله، ويقتبل أحواله.. وإن كان من أداني الطبقات، فلا يجمع إلى سفل المحتد، وجهالة الأصل، وخمول الذكر، وسوء الأخلاق، وبذاءة اللسان وقبح الغضب، وسيئ الأدب.

وكما أن رقي الفرد وانحطاطه، بحسن الخلق وضده، كذلك رقي الأمة وانحطاطها بهما، فكل أمه تحسن أخلاقها، وتطيب أعراقها، تكون راقية، تفتخر بها الأمم، ويزدهر بها التاريخ، يقول شوقي (١):

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت*** وإن هم ذهب أخلاقهم، ذهبوا

١- شاعر مصري (١٨٦٨-١٩٣٢م) بايعه شعراء عصره أميراً للشعراء في القاهرة (١٩٢٧)، من آثاره: الشوقيات.

وكل أمة، تسيء أخلاقها، فهي أمة منحطة، لا يذكرون إلا بسب، ولا يذكروهم التاريخ إلا بحقارة.

الأنانية

ليس الرجل الأناني إلا قاصر العقل، ضعيف المدارك، كثير الهواجس، قليل المنة، بعيداً عن الإنسانية، وضعياً عند الناس، صغيراً في الأعين، ضئيل النفس، فلا يغتر الرجل بعلمه، إلا إذا كان وطيف العلم، خفيف الحجي، إذ العلم بحر واسع، لا يدرك غوره، ولا يسبر قعره، ولا يحاط بجانبيه، ولا يعلم طوله وعرضه، ومهما أوتي الشخص من العلم الغزير، والمعرفة الجمّة، فإنه بالقياس إلى جميع العلوم، أقل من نسبة القطرة إلى البحر، فيكون مثل المغرور بعلمه كمثل من اغترف من الأقيانوس غرفة، ثم شمخ بما عنده من الماء، والمغتر بمعلومه، إما لا يعلم بحدود العلم، وإما لا يدرك ضآلة معلومه، وكلا الأمرين جهل..

ولا يغتر بماله، إلا من كان ضعيف المشاعر، زهيد العقل، إذ مقدار الشخص لا يرتفع بالمال، وإنما رفعة المرء بحسبه وأدبه، لا بفضته وزهبه، وإنما يحترم المال الأغنياء الذين لهم في المثرين مأرب، ويدل على ذلك، أن التاريخ يحفظ العظماء من الملوك والعلماء ونحوهم، ويأنف من أن يخصص صفحة من صفحاته بالأغنياء. ولا يعتر بجماله، إلا النبي غير المحجوب لتقلب الدهور، واختلاف الأحوال، فإن الجميل مهما أوتي من اعتدال القوام، وأناقة الهندام، لا يلبث حتى يتقوض سلطان جماله، ويذهب رونقه وبهجته، أدراج العمر وربما انقلب الجميل بشع المنظر، قبيح الصورة، كرية الوجه.

ولا يبالي ببلاغته، إلا من يؤت حظاً من النهية، ولم يرزق قسطاً من اللب، أما يرى ما أكثر من فصيح بليغ، وخطيب مفوّه، وشاعر مجيد، لا يعرف له قدر في المجتمع، وليس له حظ من الحياة، بينما من لا يعرف أن يتكلم عيأً وحصرأً، قد استوزر أو أمر، أو أشير إليه بالبنان وذكر، وهو لا يجد حتى قوت يومه، ولا يحترمه حتى زوجه وقومه..

ولا يغتر بجاهه ومنصبه، من كان له أقل إمام بالتاريخ، أو بعض الحجي، فإن الجاه يزول بأسرع من لمح البصر وارتداد الطرف، وقد ترينا العبر أناساً كانوا سادة، فأصبحوا مسوداً، أو أضحوا أمراء، فأمسوا عبيداً، ولقد نظرنا بأم أعيننا إلى ملك، كان يطاع دون الله ويعبد، ويركع له ويسجد، فلما حان حينه، وأتى وقته، أجبر بالنزول عن عرشه واستبدل به ولده، وبعد عن وطنه إلى جزيرة نازحة عن العمران، رهين نصب ومرض وفقر وحرمان! وإلى ملك كان الناس يظهرون له الطاعة والإخلاص، والود والمحبة، يستقبلونه إذا جاء استقبال العبد لسيدته، ويهتفون باسمه هتاف الوالدة بوحيدها، فلما أن جاء دوره، وهاج ثوره، هجموا عليه في عقر داره، وقتلوه شر قتلة! وإلى ملك أودى به أصحابه، وتبرأ منه أخلاؤه وأحابيه، وهو في غدة بينهم مطاع، يأمر فيطاع.

ولا يغتر بالخلآن والجيران، والأقرباء والأقوام، والأهل والولد، والعطاء، إلا من كان قليل المدارك، فلربما تغير الأخلاء أعداءً، والأقرباء حساداً، والعطاء وبلاً، والعيش مع الأهل محالاً...

أما الصحة فهي (كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً) (١)، ويتلأأ عند باصرته الهواء ماءً، فلا تذهب الأيام

حتى تنقلب مرضاً مضنياً، وسقماً مردياً.

ولو أراد أحد أن يغتر، فليغتر بالفضيلة والأخلاق، والكمال والآداب، والملكات الحسنة، والخصال المستحسنة، وليباهي بالعلم والعمل، والسخاء والعفو، والإخلاص والصدق، والوفاء والحياء، والأمانة وحسن البشر.. أما عدم احترام الناس لأنه حاكم، أو عدم الاعتناء بهم لأنه عالم، أو الافتخار بالنسب لأنه ذو محتد أصيل، أو المباهاة باللسان لأنه فصيح بليغ، فليس إلا من أعمال النوكى، وأطوار الحمقى، وأفكار المجانين وأحلام المساجين.

إن من لا يقدر على الخير، لا بد وأن يتعزى بالشر، ومن لا يعرف الفضيلة، لا بد وأن يعتز بالرديلة، ومن لا يكثر بالحسنات، لا بد وأن يباهي بالسيئات، وكذلك حال الأتانيين المغرورين، والبلهاء المحدودين، وقد قدرت المقادير أن تعكس طلبه المغتر، فلا يكون في عين الناس إلا حقيراً، وفي أنفسهم إلا سخيلاً، وفي المجالس إلا مهاناً، وعن الناس إلا مبناً، يتبرم به الصديق، ويستثقله الرفيق، ويتجانبه القريب، ويتباعد عنه الغريب.

ولو افكر الأتاني في نفسه، وما كان بالأمس وما يكون غداً، وما تجلب عليه الأتانية من الويلات والشرور، لأقلع عن غلوانه، وأقصر عن كبريائه، فقد كان نطفة تستقذرها الطباع، وسيكون جيفة تنفر منها حتى السباع.

وهو على كبره ونخوته***في جنبه يحمل العذرة (١)

وهو بنخوته وكبريائه، يجلب إلى نفسه الآلام والهموم، والأحزان والغموم لأنه ينتظر من كل أحد تقديره، ويتربص من كل بشر احترامه، والناس يأبون لمثله إلا إذلالاً، ويفرون منه فراسخ وأميالاً، فيكثر أعداؤه، ويقل أوداؤه، ويصبح بلا صديق حبيب، ولا نجي قريب، وربما آل الأمر بمثل هؤلاء، أن يعتزلوا الناس اعتزال وحش القفار، أو يعيشوا عيش ذل وصغار.

وبالعكس من هؤلاء الأريحي الذي يضع نفسه موضعها، ويعرف لشخصيته مقدارها، بل ينزل نزول الطائر عن مقامه، فلا يرى لنفسه فضلاً على سواه، ولا يتكبر على غيره بما وعاه، فيرى ما علم ضئيلاً، وما أعطي قليلاً، وجاهه طفيفاً، وعزه وطيفاً، وبهذا يكرم الأتام، ويقوم لكل أحد بواجب الاحترام، فيكبر بذلك في عين الناس، ويتعظم قدره، ويعتلي جده، فهو كالدر الذي يغوص في الماء، لثقله وحصافته، بينما الهباءة تعوم في الهواء، لخفتها وعدم متانتها.

ولذا نرى أنه كلما كان الشخص أعظم قدراً، وأعلى شأنًا، تكون أنانيته أقل، وتواضعه أكثر، وبهذا يكون عند الناس أرفع، وفي الأبصار أشرف، وهو في راحة واطمئنان، وواحة وجنان، بل إن الأتانية تنزل صاحبها - دوماً - في مهالك مردية، وصحارى مقفرة، فتطيح به الطوائح، وتلفحه اللوافح.

تركبة الذات

جبل الإنسان على حب النفس، وإرادة ترفيعها بأي نحو كان، سواء كانت في الحقيقة رفيعة أم لا؟ وتختلف أقسام الترفيع، فمنهم من يرفع نفسه بالعلوم والصنائع، والجد والعمل، والاكتشاف والاختراع، ومنهم من يرفعها باكتساب الجاه والكبرياء، والمقام المرموق، والمرتبة العالية، ومنهم من يرفعها بالمادة

والثروة، فتراه يجهد ليل نهار كي يحصل على كمية وافرة من الدراهم البيض والدنانير الأحمر، والقصور والحدائق، والمتاجر والمنازه، وقل من يجتهد في سبيل هذه الأمور لذاتها، أو لنفع مجتمعه خالصاً، دون أن يريد الرفعة والسمو، والاعتلاء والسموق، ونفس هذا القصد والعمل من أجله مكروه لدى النفوس الرفيعة، والأحلام الحسيفة، ولذا نرى أنه لا يلبث الناس يمدحون المخلص، ويذمون من يريد العلو، فيقولون: فلان يعمل لأجل أن يسود، أو ليجلب كرسي النيابة في برلمان، أو يقعد مقعد الوزير، أو يجلس محلّ الأمير، أو يعتلي على الأقران، أو يشار إليه بالبنان.

وهناك أمر آخر أسوأ من ذلك، وهو تزكية الذات، والتشديق بمحامد النفس، والتكلم في الحسنات الشخصية، سواء أكان فيما يقول صادقاً أم كاذباً، فإنه يذهب بالمحمدة، ويضول المعروف، ويقلل من العمل إن كان عاملاً، فترى أن من أحسن إليك بإحسان مهما عظم، لو نطق بذلك في منتدى، أو افتخر به في مجلس، ينقص كرمه، حتى تراه النزر الرتح، والطفيف النكد، ومن اخترع آلة ينتفع بها، لو مدح نفسه وذكاه، وفهمه واختراعه، سقط من العيون، وهوى عن مكانته السامية في القلوب، فلا يرى عمله إلا بكيّاً، ومكتشفه إلا حقيراً.

وربما انعكس الأمر، فيعوض الناس مدحه بالذم، وخيره بالشر، وعظيمه بالقليل، وكثيره بالزهيد، وبذلك يخسر قيمة نفسه، وقيمة عمله أو جاهه، فإن الناس فطروا على كراهة من يرفع نفسه، ويشمخ بأنفه، ولو سكت هذا عن لغوه، وألجم عن هذره، لكان في الناس من يكفيه المؤنة، ويطر به بالثناء، ويرشفه بأريج الحمد، فمن مدح نفسه سكت عنه غيره، ومن سكت مدحه الآخر.

ثم إن هناك سؤالاً عن المادح نفسه، يشكل الإجابة عليه، وهو أنه لو يمدح نفسه بخير سيق إليه، فلماذا لا يذمها لشر وقع فيه؟ وإن أطرى ذاته بصدق، فلماذا لا يذمه بكذب؟ ولأن قرظه بأمانة، فلماذا لا يعيبه بخيانة؟ ولأن زكاه بطاعة، فلم لا يثلبه بعصيان؟

وربما كان تزكية النفس توجب إثارة كوامن النفوس، ممن يحسده أو لا يرى له قيمة، فيتجاذب هو ومناوئوه حبل الترفيع والتخفيض، فيذكر هو محاسنه ومناقبه، وفوائده وفواضله، ومكارمه ومفاخره، ومساويه ومآثره.. ويذكر الأنداد مثالبه ومشائنه، ومناقصه ومساوئه، ومقابحه ومخازيه.

فالأفضل بالرجل: أن يسكت عن خير نفسه كما يسكت عن شرها، ويعمل ويجد، دون ذكر فضيلة أو نطق بمحمدة، فكثيراً ما يكون حمده نفسه وبالأعلى عليه، ويجلب تقريظه إياها، ذماً مقرعاً، لا قبل له به.

ومما توصم به الجاهلية: هو ما اعتادوه من الاجتماع وذكر المعالي والافتخار بالأحساب والأنساب، وقد أرانا التاريخ أنه ما كان يسلم لهم ما يرومون فقد كانت القبيلة الأخرى، تقدح فيهم، وتطعن عليهم، وتقرعهم وتعيرهم، وتوبخهم بالقبايح، وربما آل الأمر إلى السباب والمهاترة، والبغضاء والمدابرة.

إن من يطري ذاته، إن قصد من ورائه الاحتقار والازدراء، فقد أحسن وأجاد، وأصاب الهدف، وإن رام العظمة والاعتلاء، فقد ضل سواء السبيل، وتاه من غير دليل، فليسكت متكلم عن تقريظ ذاته وإلا فلا يرجون خيراً، وليهيئ نفسه رمية لرشق الألسن، وغرضاً لإسالات الأقلام، بل ربما كان الأمر بالضد من ذلك: فلو رأى عمله حقيراً، وجاهه ضئيلاً، ارتفع في الأنفس، وزيد في قدر عمله، واعتلاء مقامه، ولا يذهب على مفكر أن بعض الذم مدح، فكثيراً ما ينتقص الشخص من قدره، وهو يريد بذلك في الحقيقة مدحه، وهذا مما لا يخفى على السامعين، وتكون النتيجة هي النتيجة الحاصلة من المدح، من الهوان والسقوط، والنزول والهبوط.

القرآن

ليس عند المسلمين اليوم سفر أعز وأسمى، وأعلا شأنًا، وأعظم مرتبة، وأرفع قدرًا، وأجل رفعة، وأمنع جانبًا، وأعظم سموًا، من القرآن الحكيم.

فهم على اختلاف فرقهم، وتباين مذاهبهم، وتضاد مشاربهم، وتخالف ألسنتهم، وتناطح آرائهم، وتشتت لغاتهم، وابتعاد ممالكهم، لا يختلفون فيه أي اختلاف، ولا ينظرون إليه إلا بالإكبار والإجلال، والاحترام والتكريم، فالكل لديه خنوع، والجميع أمامه خضوع، وكافتهم يعترفون بأنه الكتاب السماوي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وتنزيل من حكيم حميد، وإنه هو ميزان الثواب والعقاب، والجنة والنار، والسعادة والشقاء، والعلم والعمل، والنجاة والهلاك، والاتحاد والاختلاف، فمن أخذ به سعد، ومن رفضه شقي، والكل يعتبر القرآن أصل الدين وأرومته، ومحتده وجرثومته، إليه يرجع، وإياه يتبع، ومنه يأخذ، وعليه يعول، وهو العين السائلة التي لا ينضب معينها، والشمس المنيرة، التي لا تضمحل أشعتها، لا يختلف في ذلك الشيعي والسني، والحنبلي والحنفي، والمالكي والشافعي، والأشعري والمعتزلي، والموالي والناصري، والعالم والجاهل، والرجل والمرأة، والكبير والصغير، والشريف والحقير، والعجم والعرب، والتركي والهندي، والحجازي والعراقي، والشامي والمصري، والأردني واللبناني، واليميني والفلسطيني، والتونسي والجزائري، والإيراني والباكستاني، والشعوب والحكومات.

ويقراه الناس في كل حفلة وندوة، واجتماع وخلوة، وفي المكبرات والمسجلات، والمدارس والإذاعات، وله في كل ذلك المكانة العليا والمرتبة المثلى، وكل هذه مما لا يختلف فيها اثنان، ولا ينازع فيها منازع، وتبذل المطابع القسط السخي من أوقاتها، والأثرياء الحظ الوافر من أموالهم لطبعه ونشره، وإجادته وأناقته، وتصحيح أغلاطه الطباعية، وتحسين ورقه وغلافه، وطروسه وسطوره، وينتفع القارئون والمقرئون، والناشرون والطابعون، والخطباء والحفاظ، من ذلك أعظم انتفاع، ويجود المفسرون والمترجمون، لتفسيره وترجمته، أعماراً طوالاً، ودهوراً عراضاً.

ومن الغريب بعد ذلك كله: ما يراه الرائي، من تظاهر أغلبهم على عدم التمسك بما فيه من أحكام وسنن وقوانين، وشرائع وأخلاق وآداب، وعقوبات واقتصاديات وإجراءات، وحلال وحرام ومندوب، وأمر ونهي وعظة، كأنه تمثال ظريف، ينظر إليه بالإكبار والإعجاب، لا أحكام ودساتير تتبّع..

ولقد صدق النبي (صلى الله عليه وآله) حيث قال: (لا يبقى من القرآن إلا رسمه) (١) فرسمه موجود، وصوته مشهود، لكن معناه ذهب مع أمس الماضي، إلا عند قليل ممن عصمهم الله.

والمسلمون مختلفون في عدم الأخذ به، فمنهم من لا يؤمن بالغيب، ومنهم من لا يقيم الصلاة، ومنهم من لا

١- أعلام الدين: ص ٤٠٦ باب ما جاء من عقاب الأعمال، وراجع أيضاً غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١١١ ح

يؤتي الزكاة، ومنهم من لا يحج البيت، ومنهم من لا يرى العدل، ومنهم من لا يطيع الرسول (صلى الله عليه وآله) وأولي الأمر (عليهم السلام)، ومنهم من لا يؤمن بآية الخمر، ومنهم من لا يبالي بحكم الربا، ومنهم من يجعل حكم الميسر وراءه ظهرياً، ومنهم من لا يرى العمل بآية حرمة التبرج، ومنهم من يستخف بآية الاعتصام بحبل الله جميعاً، ومنهم من لا يعتني بدستور (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (١)، ومنهم من لا يرى حد الزاني الجلد والرجم، وحد السارق قطع اليد، وحد الذين يحاربون الله ورسوله أن يقتلوا.. ومنهم من لا يرى مقدراً لقوله تعالى: (وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) (٢) بل لا يرضى بذلك، بل لسان تشريعه: سأنزل أفضل مما أنزل الله، ومنهم من لا يرى مانعاً لموادة الكفار، ومنهم من لا يرى مانعاً من مشاققة المسلمين ومضادتهم، ومنهم من لا يعتني بآية الميراث، فليقل الله تعالى: (لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ) (٣) - والعياذ بالله - ومنهم من لا يرى (وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ..) (٤) ومنهم. ومنهم. ومنهم. إلى حيث تتم الآيات القرآنية.

أيها المسلمون، أتذكرون مجدكم الذي طال لكم أكثر من اثني عشر قرناً؟ فإن لم تذكروه، فهذا التاريخ يذكركم.

أتدرون: لماذا كان ذلك؟

أتعلمون: إنكم اليوم لا مجد لكم ولا عز؟

أتدركون: لماذا صار هذا؟

أتحبون رجوع عزكم السابق، ومجدكم السابق، وسيادتكم الرفيعة، وسعادتكم المنيرة؟

أتعلمون طريق ذلك؟

مما لا شك فيه أنا نطلب السعادة الرفيعة، لكن الناس في الطريق مختلفون، فبعض يرتأي أنه بالالتحاق بالحزب القومي، وفرقة يرون أنه بالانضمام إلى الحزب العلماني، وثلة يظنون أنه بسيادة الاشتراكية، وزمرة يخالون أنه باتباع المنهج الشيوعي، وجماعة يقولون أنه بتطبيق المبادئ الديمقراطية.

أنا أقول: أنا قد جربنا منهاج القرآن الحكيم، ثم جربنا في هذه الآونة الأخيرة، التي لا تزيد على نصف قرن قوانين الشرق والغرب، فرأينا أن الأول كفيل بالاجتماع والتحابب والتواد، والسعادة والرفاهية والسيادة، والعز والمنعة والسمو، وقد طال أمده دليلاً على قوة أصله، وسعة فكره، وجودة سياسته، ورصانة أسلوبه، وحصافة منبثقه، ورأينا الثانية، فرأيناها بغضاً وعناداً، وتشتتاً وتفريقاً، وعداوة وتمزقاً، وثرثرة وفوضوية.

وقد يشتبه على القارئ، ويخلط بين الأحكام والاختراعات، أنا لا أريد نقد الاختراع، وأي عاقل يفعل ذلك؟ بل أريد نقد الأحكام الغربية والديساتير الشرقية، وهل هناك تلازم بين الاختراع وبين الأحكام؟ كلا! وألف كلا! كلنا يعلم علم اليقين: أننا تأخرنا عن ركب الزمن، وبقي المسلمون السادة الكرام قبل نصف قرن، يستعطون هذه الكهرباء، وذاك التلفون، وتلك الطائرة، وهذه السيارة، وهذا نصف القرن، لا يشك شك في أنه هو الوقت الذي رفض المسلمون فيه أحكام دينهم، وقوانين شريعتهم، فصاروا إلى ما صاروا إليه من فقد الدين والدنيا في آن

١- سورة البقرة: ٣.

٢- سورة الأنعام: ٩٣.

٣- سورة النساء: ١١.

٤- سورة المؤمنون: ٥. وسورة المعارج: ٢٩.

واحد.

ومن المدهش جداً، أن الغرب جاءوا لتثقيفنا - كما يزعمون - ثم رأينا أنهم ردّونا أسفل سافلين، فبينما كانت هذه الستمائة مليون (١)، وحدة متماسكة، أصبحوا فرقاً ومدناً، وأحزاباً ولغات، فتفرقوا أيادي، كلما نجم لأحدهم نجم، أو بزغت له شمس، حتى لو أراد اختراع أقل شيء، أخذوا بأكظامه حتى يقبروه في مجهلة، لا يزار ولا يزور، فأصبحنا فقراء عبيداً، وبلهاء أعداء، ولا سيادة، ولا مال، ولا جاه، ولا ثقافة، ولا علم، ولا أدب، ولا أخلاق، ولا اختراع، ولا اكتشاف، ولا قوة، ولا وحدة، ولا عتاد، ولا أرزاق، ولا استقلال، ولا.. ولا.. ولا. حتى تنتهي الفضائل بأجمعها، بل فقر، وذلة، ومتربة، وجهل، وعداء و.. و.. إلى أن تنتهي الرذائل قاطبة.

ولو أردنا رجوع السيادة إلى ما كانت، وجريان المياه إلى مجاريها، لابد وأن نرجع إلى ما كنا عليه أمس، فنجعل القرآن محور القضاء والحكم والسياسة والأمر والنهي، والاقتصاد والتجارة، والعلم والعمل، والأخذ والإعطاء، والإقدام والإحجام، فنأتمر بأوامره، وننجز بزواجه ونقف حيث أمر بالوقوف، ونتحرك حيث أمر بالتحرك، وإلا رجعت الحالة من سيئ إلى أسوأ حتى يقضي الله أمراً.

اليوم تتجهز حكومات الغرب والشرق، بأقوى الأسلحة والعتاد، وتتمتع بأكبر المؤسسات الثقافية والعلمية، وترفه عن أنفسها بأجمل الوسائل، وأحسن المخترعات، لكننا أصبحنا بعد السيادة مسوداً، وبعد العزة أذلاء، وبعد العلم جهالاً، وبعد الهداية ضلالاً، لا يخفق لنا لواء، ولا يرفرف باسمنا علم، وأمسينا كالكرة في أيدي الحكومات، وكالرفي بين أهالي البلد، يرميها أحدهم إلى الآخر، ويحوله بعضهم إلى بعض.

كل ذلك من جراء جهلنا بمقاديرنا، واستيراد كل شيء من الغرب والشرق، من غير ملاحظة النسبة بين ما بأيدينا، وبين البضائع المستوردة، فنستورد الأقمشة، ومواد البناء، والآراء والأفكار، والقوانين والأحكام كأنه لم تسبق لنا حضارة، ولسنا من المدنية في شيء، وقد جهلنا أن لدينا ثراءً وسيعاً، وديناً ضخماً، ووحدة إسلامية، ومبادئ لا يباريها مبدأ، وكتاباً يتكفل بإسعادنا، كما أسعد آبائنا الأقدمين، بين أهم حضارتين كانتا تعرفان في تلك الآونة، حضارة فارسية، وحضارة رومية.

والحكومات لا تساعد على نشر هذه المبادئ الحية، في الإذاعات والصحف والمدارس والأندية، حتى لا يزعم الزاعم من شببيتنا ما يزعم ولا يمدده المستعمرون بما يمدون، ولم يبق من الدين إلا ما توجد به أقلام جملة من الكتاب، وهم أقل قليل اليوم، أو في أذهان حفنة من العلماء والخطباء، ولم يأخذ الناس منهم، إلا على أنها طقوس عادية، وأحكام تقليدية، من غير تفهم للحقائق، وإدراك للمفاهيم، ثم إنهم يرون تمزق البلاد الإسلامية كل ممزق، وخمودها عن الصناعة والاختراع، وموتها في مجاهل ركب الإنسانية، السائرة نحو الأمام، فيحسبون أن كل ذلك من سينات الدين، أو القرآن - والعياذ بالله - مع أن الدين والقرآن يتبرآن من هذه التمزقات، وينهيان عن الخمود والخمول، والتأخر والخنوع.

وقد جعل القرآن المسلم في أول قافلة البشر (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) (٢)، وإذا عرفنا موضع الداء، فاللزام أن نبادر إلى العلاج، إن أحببنا أنفسنا، وأردنا عزنا وسعادتنا، وسوددنا ورفاهنا، وذلك يتم بالتعاون بين

١- لا يخفى أن عدد المسلمين بلغ المليارين حسب إحصاءات عام ٢٠٠٠م، انظر كتاب (المتخلفون مليارا مسلم- للإمام المؤلف - (قدس سره)).

٢- سورة آل عمران: ١١٠.

الحكومات الإسلامية، والشعوب، والعلماء، وحملة الأقلام، والخطباء والوعاظ، والشعراء وأصحاب الأخلاق. فإنا اليوم نحتاج إلى درس الإسلام درساً صميماً، يرضاه الإسلام، لا درساً ترضاه الفلسفة والمدنية، ثم تحليله تحليلاً عميقاً، ثم تطبيقه على ظرفنا الحاضر، ثم حل المشاكل التي تواجهنا عند التطبيق، وبعد هذه الأعمال، نقارن بين الإسلام وبين سائر المبادئ من شيوعية، وديمقراطية واشتراكية، وقومية، وعلمانية، ونرمق الفارق على ضوء من العقل والمنطق السليم، وحين توفرت لنا هذه المواد، يجب علينا أن نبّغ ذلك للمسلمين أولاً، وسائر أهل العالم ثانياً، حتى يتضح الفرق، ونتمكن بذلك من تركيز العقيدة والإيمان، وبث الإسلام والقرآن، في الأذهان كي ينشأ نشأً صالحاً، لا ينظر إلى الإسلام بمنظار الغرب، ويعرف عن حقيقة الإسلام ما أخفاه المستعمرون.

وعلى الحكومات الإسلامية القسط الوافر من العمل، فعليها أن تتقارب، وتتحد، وتعمل بأحكام القرآن، وتفسح المجال للخطابات الدينية، وتجعل الدين في المناهج الدراسية، وتقطع أيدي السارقين الذين يسرقون المال والشرف، والوحدة والدين، في وقت واحد.

وإن العيد: هو اليوم الذي تستبدل الحكومة فيه قوانين القرآن بدلاً عن قوانين الغرب، وتعوض عقيدة الإيمان بدلاً عن الآراء الماركسية والديمقراطية وما إليها، وذلك اليوم هو اليوم الذي يطمئن فيه بالاستقلال، ونعرف أننا قد خرجنا من ذل عبودية الدول المستغلة، إلى عز الإسلام. لكن أنى؟ وكيف؟ ومن أين؟ ومتى؟

الصلاة

إن من يقدم إلى أحد (سيكارة) رأى أصحاب الضمير وجوب شكره بقدر تلك السيكارة، حتى أنه لو لم يشكره لكان كافراً لإحسانه، بعيداً عن الإنسانية.

ولو قدم إليه داراً، رأوا وجوب شكره أزيد من شكر السيكارة، بقدر النسبة بينها وبين الدار. وكذلك تتدرج مراتب الشكر باختلاف قيم الأعطيات، فالسلطان الذي يغمر بنعمه شخصاً، فيهيئ له الدار، ويزوجه، ويمنحه عزاً وجاهاً، ويعطيه ما يكفيه لمعاشه، ويقوم بكل شأن من شؤونه، لا بد وأن يشكره هذا الشخص ليله ونهاره، وغدواته وروحاته، ولو لم يشكره لكان ممن قابل الإحسان بالكفران، ولأمله أهل الوجدان. إن الله تعالى أوجد الإنسان من العدم إلى الوجود، فجعل التربة الغبراء، نبتة خضراء، ثم بدلها بحيوان، ثم صير الجميع نطفة، فعلقه، فمضغه، فعظاماً، ثم كسا العظام لحماً، وشق له السمع والبصر، وأنشأ له قلباً يعي، وفكراً يقي، ولساناً وأذنين، ويدين ورجلين، ثم أخرجه من ظلمات الأرحام، وأمال عليه قلب الأبوين والأرحام، حتى ترعرع وكبر، وسمع وبصر، وراقبه في آناء الليل وأطراف النهار من المؤذيات المهلكة، واللاسعات المردية، وهياً له الأرزاق والراحة، ومهد له سبل الحياة الوعة، حتى بلغ واحتلم واستوى أشده، ثم أراد منه شكراً خفيفاً يرجع نفعه إليه، ولا ينتفع به هو، وهو الصلاة!

إن الصلاة شكر لله تعالى على نعمائه التي تجاوزت حد الإحصاء والوصف، وانقياد له وخشوع لعز جلاله، فتشتمل على تكبيره وتحميده وتهليله وتوحيده وذكره، وقد وعد بذلك الثواب، وحذر تاركها من العقاب.

أليس من عدم الضمير والوجدان، أن يترك الإنسان شكر هذا الخالق العظيم، الذي يحتاج إلى فواضله في كل غمضة وكلمة وقيام وقعود، وكل شهيق وزفير، وحركة وسكون، وفعل وترك، ونوم ويقظة، وصحة ومرض، ذلك الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

ولو فرضنا أن الله تعالى لم يحسن إلى البشر في أدوار أرضيته ونباتيته وحيوانيته وجنينيته وطفوليته، وإنما شرع في الإحسان والإنعام من أول حال البلوغ، لكان العقل يرى لزوم شكره والتضرع إليه والاستكانة ببابه، وحمد جنابه، لهذه الأيادي الجميلة الكثيرة التي أسداها إليه، لكن الإنسان العاتي لا يأل جهداً في مخالفة الرب العظيم، فلا يؤدي حقه، وينتهك حرمة، ويتمرد على شكره، حتى أنه لا يقدم إلى سبع عشرة ركعة في اليوم والليلة، مما ينتفع هو بها، ويتنور بقرب بارئه من أجلها.

ولو فرضنا أن أحداً من الملوك أسدى إلى بعض مواليه ربع هذه النعم، ثم أراد منه أن يعمل لأجله نصف يومه لكان جديراً بالإطاعة، حقيقة بأن يُشكر ويذكر، فكيف بالله العظيم الذي له كل شيء، ومنه كل نعمة؟

ومن لم يفعل فليس يضر الله شيئاً، وسيجزى الشاكرين، ويعاقب المخالفين، في يوم يقول العاصي: (رَبِّ ارْجِعُونِ)(١)، فيقول: كلا، ولا ينفعه الندم، ولات ساعة مناص.

ومن أجل هذا وذلك، لم يزل النبي العظيم (صلى الله عليه وآله) وأوصيائه البررة (عليهم السلام)، يؤكدون في أمر الصلاة فضل تأكيد، والقرآن الحكيم حث عليها في كثير من الآيات، أما اليوم وقد وهت العقيدة بالله واليوم الآخر، وضعفت الصلة بين الخالق والمخلوق، فقد ذهبت الصلاة كالأمس الدابر، وصارت كبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون، فترى الفنادق في البلاد الإسلامية في الصباح مستغرقة في نوم هادئ وعميق، لا يتنفس فيها متنفس، ولا يركع لربه فيها راع، إلا من شذ ممن يخاف الله بالغيب، وكذلك حال الثكنات العسكرية، والمدارس التي ينام فيها النازحون عن بلادهم لتحصيل الثقافة، والقطار وسائر وسائل النقل من الطائرة والسانرة التي تمشي طيلة وقت الصلاة، فتحيط أول الوقت بآخره، والدور لا تفضل على الفنادق وأخواتها، في هذه الظاهرة، فكأننا أمة مسيلمة وسجاح، لا أمة محمد (صلى الله عليه وآله) الذي ينزل عليه: (اقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً)(٢).

و: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ..)(٣).

لكن العصر عصر رقي وثقافة! تبدل فيه كل شيء، فصارت الجمال طائرة وسانرة، والسفينة باخرة، والسيف قنبلة، والشمع كهرباء، فلنكن تبدل الآية: (لا تقم الصلاة.. ومن الليل فلا تتهجد به...، رحماء على الكفار.. أشداء بينهم.. تراهم لا يركعون.. ولا يسجدون.. ولا يبتغون.. ليس سيماهم في وجوههم من أثر السجود).

فليقم علي أمير المؤمنين (عليه السلام) ويطوف في المسجد ليوظ النانمين للصلاة وينشد، فيما يروى عنه:

١- إشارة إلى قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ..)

سورة المؤمنون: ٩٩-١٠٠.

٢- سورة الإسراء: ٧٨-٧٩.

٣- سورة الفتح: ٢٩.

(خلوا سبيل المؤمن المجاهد - إلى أن قال: - ويوظف الناس إلى المساجد)(١).

إن النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام) ما كانوا يقتصرُونَ على الفرائض السبع عشرة ركعة، بل يزيّدون عليها نوافلها المسنونة: للصّبح اثنتان، وللظهر ثمان، وللعصر ثمان، وللمغرب أربع، وللعشاء واحدة أو اثنتان، وللليل ثلاث وثمان، ثم لا يقفون عند هذا الحد أيضاً، بل يضيفون إليها صلاة النبي (صلى الله عليه وآله) وجعفر (رضوان الله عليه)، وعلي وزوجه وابنيه، والأئمة التسعة (عليهم السلام).

ثم كان يقف النبي (صلى الله عليه وآله) في الصلاة حتى تتورم قدماه (٢) فنزلت: (طه * مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)(٣) واقتدت به ابنته الصديقة (عليها السلام) (٤)، وكان علي (عليه السلام) يصلي كل ليلة ألف ركعة (٥)، واقتدى به ولده، حتى أن السجاد (عليه السلام) كان يقرض ثففات مساجده كل سنة (٦).

فهل صلى أولئك عنهم وعنا! كما يقول المسيحيون: افتداهم عيسى (عليه السلام).

حقاً صحيح ما قاله الحكيم العليم: (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)(٧) إن فريقاً من الإباحيين تركوا الصلاة بزعم أنهم أتاهم اليقين، مستدلين بقوله: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)(٨) كأن الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يأت اليقين ولذا كان يصلي حتى آخر نفس من حياته، وهم قد أتاهم؟! وآخرين تركوها استئقلاً، ولم يبق لها إلا الخاشعون، وهم اليوم قليلون، (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)(٩).

ولا يسبق إلى ذهن أحد، أي أريد خطأ من كرامة المسلمين - والعياذ بالله - لكني أريد أن أقول: إن الصلاة أهم مما نراها اليوم، فيلزم الاهتمام بشأنها في كل فندق ودار، وطائرة وقطار، ومدرسة ومدينة وثكنة وريف، (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا)(١٠).

الوقية

يفر غالب الناس من السبّ والوقية فرارهم من الأسد الغضبان، فلو عرفوا أن أحداً سيهم، دارت بهم الأرض الفضاء، وتضطرب لذلك قلوبهم، وتتهاوى جوارحهم، وتتغير ألوانهم، ويستشيطن غضباً، فكان القيامة قد قامت عليهم، وأن احترامهم رهن ألسن الناس، فإن ذكروهم بسوء ولو عن كبر وعناء، ذهب ريحهم،

١- المناقب: ج ٣ ص ٣١٠ فصل في مقتله (عليه السلام).

٢- تفسير القمي: ج ٢ ص ٥٧، في تفسير سورة طه.

٣- سورة طه: ٢-١.

٤- راجع بحار الأنوار: ج ٤ ص ٧٥ ب ٣ ح ٦٢.

٥- الكافي: ج ٤ ص ١٥٤ ح ١.

٦- بحار الأنوار: ج ٤ ص ٦ ب ١ ح ١٢.

٧- سورة البقرة: ٤٥.

٨- سورة الحجر: ٩٩.

٩- سورة سبأ: ١٣.

١٠- سورة النساء: ١٠٣.

وسقطت مكانتهم في القلوب، وربما يُخيل إلى بعضهم أنه ينظر إليه الناس، حين يمر بمنندى، أو يجلس في مجلس، وقد يتهينوا للانتقام، فيكيلون سباً مقذعة، وافتراعات وسقطاً من القول، لمن مس كرامتهم، ونال منهم ما نال.

إن حفظ العرض لمن أهم الأمور، وحراسة الكرامة من كبر النفس والشهامة، والغضب على من صدرت منه الوقية، سمة من سمات الغيرة، وخاصة من خواص صاحب الفضيلة والأخلاق، فإن من لم يبال بما قال وما قيل فيه يكون منقوص الهممة، عديم النجدة، قليل الحياء.

لكن أمر مهم دعانا إلى بيانه وهو أن كل مصلح ومفسد لابد وأن تناله الألسن بما لا يحب، أما المفسد فليس من مرمى البحث في هذه الكلمة، وإنما البحث في المصلح، فنقول:

كل من قام بإصلاح لابد وأن يرميه الناس بسهام الانتقاد، ويرشقوه بنبال السب، ويسلقوه بألسنه حداد، وينقسم النائلون منه إلى رجلين:

رجل لا يقدر أن يراه يعتلي، وإن كان على بصيرة من أمره، فهو يسبّه حسداً، لعله يتمكن من إنزاله من منعته الرفيعة والسمو، إلى حيث مستوى نفسه، فإن من صغرت نفسه، وقلت همته، لا يتمكن أن يعلو إلى حيث علا قرينه، فيحتال حيلة لإنزال قرينه، حتى يجعله في ربقة، فهو كمن يرى صديقه على السطح، وإن لا يتمكن من الصعود، يحتال لإنزال صديقه إلى مقره.

ورجل لا يطلع على دخيلة أمره وأنه يريد الإصلاح، أو يعلم لكنه ينافي مصالحه الشخصية، أو مصالح النوع بنظره، فهو ينال منه لنلا يفسد النظام الاجتماعي، فهو كمن يزعم أن فلاناً يريد أن يقتله، فيسبق إلى قتله ليستريح منه.

إن السبّ الموجّه إلى المصلح لا يخلو من أحد هذين الوجهين - في الأغلب - والنظرة الإصلاحية لا تستوحش من السب، فإن الرجل لا يقدم على الإصلاح، إلا إذا وطن نفسه على أمور أهونها الشتم والوقية فيه، لكن سرعان ما ينقشع السحاب، ويجلو العمى، فيطريه الساب، ويفتخر به الشاتم، ويعظمه النائل منه، ولو كان المصلح مجهزاً بحلم وثبات شديدين، لكن اللازم عليه أن يفرح بالسب أكثر من أن يفرح بالمدح فإن من يمدحه جميع الناس، لا قيمة له، إذ يكشف ذلك عن نفس ضعيفة تنقاد لكل أحد، وعنق ذليل يجعله الناس جسراً، يعبرون عليه إلى مقاصدهم، ومن يكون الناس في حقه فرقان، مادح وذام، وساب ومطر، هو الذي له المكانة والقدر.

ولو قيل: إن الساب يحمل حجر عظمة المسبوب، لكن لهذا القول محل من الصواب، فإن العظمة يحمل أحجارها الصديق والعدو على حد سواء، فالأول يرصفها والثاني ينحتها، حتى تكون قصراً فخماً مطلاً على الأجيال، لا يزحزحه تغير الزمان، واختلاف المكان، وتشعب الأقوام، وتشتت الأفكار.

وقد يكون الساب أقرب إلى تدعيم المسبوب، وتركيز جذوره، من الصديق المادح، إذ المادح متهم، بخلاف الساب، فإنه لابد له أن يذكر شيئاً من أعمال المسبوب، كي يتمهد له الطريق لسبه والقدح فيه، وكثيراً ما يكون لذكر عمله ترفيحاً له، وتثبيتاً لدعامته، مثلاً يقول: إنه صاحب قلم، لكن يصرفه في الإفساد، أو صاحب مقال، لكن يطلقه في الإضلال، أو تاجر لكنه غاش، أو عالم لكنه ممن يبيع الدين بالدنيا، أو مخترع لكنه يحب الظهور، أو مدرس لكنه معوج الذوق، أو ما أشبه. وفي هذا يكون قد أثبت له اليراع واللسان، والتجارة والثقافة

والاختراع والتدريس، وغالب الناس يقبلون المدح من الذام، ويحملون ذمه على أغراض شخصية، ومنافع مادية، فتسقط وقيعته، وتتركز مدحته.

وهناك أمر آخر يرجع إلى العظمة، يخدمه الذام والمادح على حد سواء، بحيث لولا الذام، لذهبت أدرج الرياح، بل ربما كانت خدمة الذام أكثر، ويرجع النصيب الأكبر فيه إليه، وهو: أن الساب الذام، لا يسكن جأشه إلا ببسط المسبة على مائدة مجالسه، وإبداء عورة المسبوب وهجنته في ممساة ومصبحه، وبذلك يستشيط المادح غضباً، فيعارضه بدحض كلامه، وإعلاء محاسن الممدوح، ويأخذ أهل الحجى من بين الأمرين صورة عظمة المنازع فيه، وبذلك يستطيل فرعه، ويكثر أنصاره، ويقوى جذره، وكثيراً ما يعظم وهو في التراب دفين، ويحتفل له وهو عظام رميم، ويرجع أكثر الفضل في ذلك إلى الساب، فإنه لولاه لخفي مدحه، واندرست محاسنه، وانهارت عظمته.

وكثيراً ما يظن الباحثون أن بقاء عظمة العظماء من عوامله أنامل الخصماء، فلولا الظلمة ما عرفت عظمة النور، ولولا الحرور لم يقدر الظل، ولولا المرض لم تعرف نعمة الصحة، ولولا التعب ما ظهرت قيمة الراحة، ولولا نمرد، وفرعون، وقارون، وهيردوس (١)، وذئ بلطس، وأبو جهل، وأبو لهب، ومعاوية، ويزيد، لم يكن يظهر لنا بعض السجاي الكريمة، والأخلاق الفاضلة والحلم في قبال الطيش، والعلم في قبال الجهل، والعفو في قبال القسوة، والإحسان في قبال الشدة، والعدالة في قبال الظلم، والزهد في قبال التكالب، وما أشبه، التي برزت من إبراهيم وموسى، ومحمد وعيسى، وعلي والحسن والحسين (عليهم أفضل التحية وأزكى السلام)، وليس هذا الظن بكثير بعيد عن الصواب، فإن أبا سفيان كان يؤلب، ولما ملك النبي (صلى الله عليه وآله) أطلق، والذوق يرى ازدياد الجميل جمالاً، إذا قابله القبيح البشع.

وربما يكون الساب الذام، من أقوى الأسباب لهدم كيان نفسه، بنحو لا يقدر عليه المذموم لو أراد، فإنه بالذم يبدي دخيلة نفسه، وقبح ما انطوى عليه قلبه، وخباثة جبلته، وقذارة طينته، مثلاً لو لم يكن زوج أكلة الأكباد، ينتقص النبي (صلى الله عليه وآله) ويناله بلسانه وبنانه، لانغمر في مجاهل التاريخ، وكان كسائر من لم يسطر له القلم ذكراً من البعداء عن الإنسانية، لكنه بعمله هذا نصب نفسه مسبة الأجيال، وكشف سوءته لدى الأمم والأعقاب، ولو لم يخبر النبي (صلى الله عليه وآله) عن دخيلة فؤاده، وغل صدره، لآمنا بذلك تعبداً وإذعاناً، لا رؤية وعياناً.

الجدّ

الحياة نفق مظلم، تنيره الأعمال، ومسرب يقطعه الجدّ، فكما أن الواقف في مكانه، لا يتمتع بالتفرج في البلدان، ولا بكسب الأصدقاء والخلان، وكما أن العاقل لا يتهيا له العيش الهنيء والمهاد الوثير، كذلك من لا يجدّ لا يتنعم بخير، ولا يتلذذ ببقاء، الجد كالشجرة النابتة، التي لا تلبث حتى يخضر ورقها، ويُسهي ثمرها، مهما كان نوع الورق والثمر وصنف النبت والشجر، والكسول كالحجر الملقى في الصحراء، لا يستظل به ولا ينتفع

١- هيرودس ملك اليهودية في ظل الرومان، أمر قبيل وفاته بذبح جميع أطفال بيت لحم في محاولة لقتل الطفل يسوع.

منه.

من نظر إلى البلدان نظر معتبر رأى آثار الجد بادية عليها، فمن شوارع معبدة بالقار، وأرصعة مبلطة بالرخام، ودور مبنية من الآجر والحديد، ملونة بالألوان، مبوبة بألواح الخشب، وسائرة تسير، وطائرة تطير، وباخرة تمخر الماء مخراً، وقطار يسير سيراً، إلى غيرها مما لا يحصيها المحصون، ولا يعدها العادون، كل هذه آثار الجد، وسمات الجهد، وعلامات العمل، فمن لا يجد ولا يعمل، كان كالأعلى على الحياة، يلفظه القريب، ويشمئز منه البعيد.

إن العمل والجد وإن كانا يكرران الحياة بعض التكدير، فإنهما يتعبان الأعصاب، وينهكان الجسم، وينبيان منصلت الفكر، إلا أنه لو بطلا عاد الناس وحوشاً، وآل نظام الاجتماع إلى تبدد، وإن المرء يقاس بفكره وجده وعمله، أكثر مما يقاس بثروته ونسبه وجاهه، ولذا نرى التاريخ يحيط الكاد العامل من الملوك بهالة من الاحترام دون الكسول العاقل منهم، ويشق المفكر المخترع الصف الأول في الصفحات، بينما غيره قد لا يحظى بذكر اسمه في آخر ديوان التاريخ.

إن العلو في الحياة، والعلو في الممات، والشرف في الدنيا، والشرف في الأخرى، يناط بالجد، وهو كالمراقبة كلما اعتلى الشخص درجة منها ازدادت رفعة ورقياً، مثلاً: من كتب كتاباً ينتفع منه المجتمع، فهو أرقى ممن لم يكتب، ومن كتب كتابين كان أرقى ممن كتب كتاباً واحداً، ومن اخترع أمراً، فهو أرقى ممن لم يخترع، ومن كشف سرّين من أسرار الحياة، فهو أرقى ممن اكتشف أمراً، ومن زرع حقلاً، كان أرقى ممن لم يزرع، ومن زرع حقليْن كان أرقى ممن زرع حقلاً، وهلم جرأ..

والكبار الذين يحفظهم التاريخ في جو من العظمة، ليسوا إلا أفراداً عاديين جدوا واجتهدوا، حتى بزغت شمسهم، وساعدهم التوفيق، فقلبوا على ما قصدوا، وإذا بهم يذكرون في صف العظماء، وكثيراً ما يكون محتدهم غير نابه، وأصلهم غير متألق، ولو نظر الإنسان في أنساب الكبار، لرأى أن أحدهم نشأ في بيت عامل، وثانيهم ترعرع في كوخ زارع، وثالثهم يفع في مصعد جبل، ورابعهم شب في منقطع رمل، وخامسهم كبر في خباء بادية، وهكذا، فإن كثيراً من مخصبي الأراضي مجديي الفكر والعمل، وكثيراً من مجديي الأراضي مخصبي الفكر والعمل.

ثم أن للنبوغ والعظمة غير الجد شرطاً آخر، وهو علو الهمة، وارتفاع النظر، وبعد الفكر، وإلا فالكناس وإن اجتهد في كنس الشوارع والأزقة، وصرف على ذلك بياض نهاره، أو سواد ليله، فإنه لا يتقدم نحو المعالي ولو قدر عقدة إصبع، (فإن المرء يطير بهمته، كما يطير الطائر بجناحيه)(١)، فهذان شرطان لا يجتمعان فيمن كان رائده التوفيق، إلا نبغ وازدهر نجمه، وارتفع حظه.

وقد ينظر الناظر إلى نابغة من النوابع، فيحسده في علوه ذاك، وبقاء نفسه في الحضيض، أو يتعجب من دوران الفلك بسعده، دون نفسه، لكن الأمر ليس كذلك، فلينظر إلى جده في النهار، وسهره في الليل، وحركته في الحر والقر، ودؤبه على العمل، ثم يتوجه نحو نفسه كي يرى بطالته نهاراً، ونومه ليلاً، وتكاسله عن العمل، وخفته في كل حل ومرتحل.

وقد نقل لي أحد رجال الدين، أنه ربما كان في أيام شبابه يقطع ليله مطالعة وبحثاً، إلا قدر ساعتين، بينما

١- راجع بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٣٨٠ ب ٣ ح ٨٦. والمناقب: ج ١ ص ١٧٧.

كان رفاقه في منتزه يلعبون، أو في سفر يمرحون، أو في جلسة أنسية، أو ملذة عائلية، ثم رأيتهم جميعاً الكاد والعاطل في أبان شيخوختهم، فكان الكاد الذي حكى لي الحكاية، مرجعاً مرموقاً، وملاذاً مكرماً، حيث كان رفاقه أولئك في خمول وخسران، وسقوط وهوان.

وحدثت عن أحد المخترعين الكبار، أنه ربما كان في غرفة اختباره أسبوعاً كاملاً، لا يأكل إلا قدر ما يقوم صلبه، ولا ينام إلا مضمضة، حتى ظفر بمطلوبه، ونال ما أراد.

فالجِد والظفر توأمان.. والبطالة والحرمان شقيقان..

فمن جد ظفر، ومن كسل حرم..

وليس للجد غاية وللعمل نهاية، فكلما كان الاجتهاد أكثر كان المطلوب أكبر، وحينما كان العمل أدوم كانت النتيجة أقوم.

والجد والكسالة حالتان وقودهما الفكر، فمن أطلق عنان نفسه ولم يفكر في ماضيه ومستقبله، آل أمره إلى الكسل والبطالة، ومن اضطر نفسه إلى العمل، ورفض الكسل فاز بالمراد..

فإن من جد وجد.. ومن اجتهد رشد.. ومن لج ولج.. ومن شج عرج.

هل يمكن الإصلاح؟

كلنا نعرف الداء، وإنما الخلاف في الإصلاح، فالأغلبية الساحقة يرون أنه غير ممكن، ولهم حجج ومستندات.

يقول فريق: إن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) مع كثرة اهتمامه بالإصلاح لم يتمكن، مع أنه كان مثلاً لكل شيء.. للعدالة والنشاط والدين..، وكان بصيراً بمواقع الأمور ومصادرها.

ويقول آخرون: إن الوقت هو الوقت الذي أخبر به النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) بكونه آخر الزمان، ولا بد أن يقع ما وقع، ولن تجد لمشينة الله تعالى تحويلاً.

ويقول زمرة: يدور العقار المنتج مدار وحدة كلمة العلماء فإن اتحدت صلح الناس، وإلا فلا يرجو راج ذلك لأن الاتحاد محال..

ويقول ثلة: اتسع الخرق على الراقع، فلا يفيد كلام وعظة، وصياح ونياح، وبكاء ولطم، وقلم وقدم.

ويقول جماعة: نحن لا نتمكن من إصلاح أنفسنا فكيف نتمكن من إصلاح غيرنا.

ويقول بعض: إن الغرب والشرق فغرا فاهما لالتهام هذه العدة القليلة من المسلمين، وليس للمسلمين عدد ولا عدد، ولا سلاح ولا كراع، وليسوا مجهزين بما يتطلبه الزمن، من الآلات والمعدات، والمعامل والمصانع، والمدافع والقنابل، ومع هذه الأوضاع لا يمكن تقدم شبر.

ويقول فئة: لو فرضنا أن أحداً قام بالإصلاح، رماه - حتى أقرب الناس إليه - بالجنون، وأخذ الأجرة، والعينية، وما أشبه، وبذلك تسقط كلمته، ويذهب هو بنفسه شهيد التهمة، فإنه مع عدم تمكنه من الإصلاح، أفسد نفسه، وأذهب بروحه على عالم آخر.

وهكذا يقولون.. ويقولون..

أنا أدري: أن كل نهضة، وكل فكرة، كانت مهددة في بدو أمرها بكل هذه، وقد لاقت كل هذه المتاعب والمصاعب، وجوبت بجميع هذه المجابهات، ومع ذلك فقد نجح كثير منها، مع أن ما يذكرونه بعيد عن الصواب، فإن علياً (عليه السلام) وفق للإصلاح تمام التوفيق، إذ ليس شرط الإصلاح: أن يستتب الأمر له في زمان حياته، ولو نظرنا إلى ما بذره علي أمير المؤمنين (عليه السلام)، لرأينا غابته الشجراء التي تكونت ببركة بذرته، ولا تزال تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وحديث كون الوقت آخر الزمان: لا يدعمه شاهد، وقد ظن كل قوم هذا بالنسبة إلى زمانهم، وأما وحدة كلمة العلماء فليست هي المدار الوحيد - على ما يزعمه القائل - فإنه لم ينزل الله بذلك من سلطان، مضافاً إلى أن توحيد كلمة العلماء على المصلح المشمر ذيله، غير عزيز، وهل تفوق الحكومات الأخر والمبادئ الشائعة في غرب الأرض وشرقها ناجمة من اتحاد كلمة علمائهم؟!

ومن يقول: لا ينفع كلام وعظة، فهل يدعم كلامه دليل؟ أو أوحى إليه من يوحى إلى أوليائه؟ وهل كل هذا الأثر الباقي إلا من الكلام والعظة؟!

ولا كلام لنا بمن لا يتمكن من إصلاح نفسه، فهو بمعزل عن مدار الكلام، وإنما نطاق الحديث يدور على من يزعمون الإصلاح، نعم حديث الغرب والشرق صحيح، لكن صحة هذا، لا يمنع عن الفكر وتداول الكلام حول طريق الإصلاح، والتاريخ يشهد على أن المسلمين كانوا يرصدون غزو الغرب والشرق، فما عكس الأمر منذ نصف قرن تقريباً، هو كفيل بأن يجري المياه في مجاريها الأولية.

وأما رمي المصلح بالجنون وما أشبهه، فكم له في التاريخ من نظير، وكم نجح الذين رموا بالجنون ونحوه.

الأخلاق الفاضلة

ربما يظن الظان أن معنى حسن الأخلاق: هو البشاشة مع الناس، ومبادرتهم بالسلام والتحية، والمصانعة والابتسام، والمداهنة والاستسلام، لكن الأمر ليس بهذا الهوان، وليست الحال بهذه السهولة، بل الخلق الحسن شمس مطلعها القلب، وأشعتها منبثة في الجوارح والمشاعر، والخلق الحسن ليس إلا إيفاء كل ذي حق حقه، خالقاً كان أم مخلوقاً، قريباً أو بعيداً، جماداً أو نباتاً أو حيواناً أو إنساناً، ماءً أم تراباً أم هواءً أم نوراً.

الخلق الفاضل: هو أن لا تطلق اللسان في كل مذهب، ولا تلجمه في كل مأتي، فلا تسب ولا تكذب، ولا تغتاب ولا تعيب، ولا تهمز ولا تلمز، ولا تطعن ولا تجرح، ولا تقول هجراً، ولا تأمر نكراً، ولا تهجو أحداً، ولا تتخذ في الكلام ملتحداً، ولا تخوض في أباطيل الكلام، ولا تهدر هدير الحمام، تقول الحق وإن كان عليك، وتحكم بالعدل ولو على الأقربين، وتأمر بالمعروف الحسن، وتنهي عن المحذور القبيح، تختار الصدق ولو ضرك، على الكذب ولو نفعك.

هو أن تحدّ العين في حدها، وتضرب بينها وبين الرذائل بسور، فلا تنظر إلى أحد نظر خيانة، ولا تسرق النظر، وتطالع آيات الكون، وعلامات الحق، وتسرح اللحظ في مجاري الفكر، وتمنع العين عن السوم فيما يورث حسرة، أو يجلب غصة، أو يسبب ألماً، أو يجر مغرماً.

هو أن تزم الأذن بزمام الخير، ولا تطلق سراحها في المقافر المهلكة، فلا تسمع إلى ذم أحد، ولا تصغ إلى

عيب، أو نقص، أو كذب، أو بهتان، أو غيبة، أو تهمة، أو كلام باطل، أو صوت لهو، ولا تصيخ إلى وشاية واش، أو لغو حديث، أو ما يفسد قلبك، أو يبتل فؤادك، وتسمع إلى ما ينفعك من الفضيلة والدين، والعلم والثقافة، وتواريخ الكبار، وقصص العظام، والعبر والآثار، والعظة والأخبار.

هو أن تقبض اليد عن السرقة والخيانة، والضرب والطم، واللهو واللعب، وأخذ الرشاش، ونيل المحظور من المنى، وتبسطها نحو الخير والمعروف، والجود والإحسان، تمشح بها على رأس اليتيم، وتحمل بها سلة الأرملة من السوق إلى الدار، وتخدم الإنسانية بيراغ أو اختراع، وتنظيف أو تخفيف، لا غش وتطيف وقتل ونهب وتخريب.

هو أن تستعمل الرجل في العمل للصالح العام، تمشي في حوائج الناس، وتذهب للكمد على الأهل والعيال، وتحضر في حفلات الأخلاق والفضيلة، والمدارس العلمية، والمعاهد الأدبية.

هو أن تحفظ القلب - وهو الأساس - عن كل رذيلة مردية، وصفة مهلكة، فلا تنوي الشر، ولا تراني، ولا ترتاب في الحق، ولا تحسد، ولا تحقد، ولا تضمر العدا، ولا تخفي البغضاء، وتبذر فيه الخير والمعروف، والإحسان والإخلاص، والحب والوداد، والصالح والرشاد، والشجاعة والجود، والحمية والإنسانية، والشهامة والبسالة.

إن هذا هو الجمال، وهو الأخلاق، وهو الفضيلة، الفضيلة هي أن تعدل، لا أن تبتسم ابتسامة المصانعة والرياء، هي أن تحسن معاشرة أهلك وولئك وسائر من تعاشر.

لا أن تحفظ رطب التاريخ ويابس، ثم تجلس في المجالس وتحوز قصب السبق في الثرثرة والنقل، والظرافة والظراوة.

لا أن تحسن رفع اليد بالسلام، وكسر الجفون والعيون في المحشد والمجتمع، ثم تكذب ما شاء هواك، وتقع في أعراض الناس ما يوحى إليك كبرياؤك.

لا أن تصانع الزبائن بلسان ألين من الأرقام، ثم تغشهم بقلب تدب عليه عقارب الخديعة والنفاق، ويشير بالبغي والشقاق.

لا أن تصانع في الملاء، ثم تعادي في الخلاء:

أما اللسان فمطلي به غسل***أما القلوب زنابير وحيات

إلى ألوف غيرها، مما يجعله علماء الأخلاق، تحت عمودي الفضيلة والرذيلة، والمساوي والمحاسن. وقد انقلبت الآية في هذا العصر، وكأنه وقع زلزال في أبنية الأخلاق، فانتقل ما في قائمة الفضيلة تحت عنوان الرذيلة، وما في قائمة المساوي تحت عنوان المحاسن، فسمي الجبان محتاطاً، والشجاع مخاطراً، والكرم إسرافاً، والبخل اقتصاداً، والغيرة توحشاً، والاستهتار تمدناً، واليقين خرافة، والشك حرية، والعفة جبناً، والخلاعة جرأة أدبية، وسمي الصادق أحمقاً، والكاذب ذكياً، والغاش عالماً بالمكسب، والناصح جاهلاً بمقتضى الزمن.

إن من يقرأ في تاريخ الغابرين، أو يطالع في صفحات بعض المدائن: أن هناك أناساً لا يغشون في المعاملة، أو لا يكذبون في معاشرة، أو يرحمون الضعفاء بجمعيات خيرية، أو يكرمون الغرباء بحفلات الحفاوة، أو يدافعون عن نواويسهم وأعراضهم مدافعة الأبطال، أو يمدحون المحسن ويذمون المسيء، يكاد أن يخيل أن تلك

من أساطير الأولين، أو خيالات الآخرين، وإن تلك لم تتمتع على هذه الكرة بيوم أو بعض يوم، فهي حكاية عن سكان المريخ، أو قضايا كحكايات: كليلة ودمنة، أو ألف ليلة وليلة.

ولو قدر يوماً أن رأينا بأم أعيننا العدل منبسطاً، والجور منكشأً، والصدق فاشياً، والأمانة ذائعة، والنصح بادياً، والحلم ظاهراً، والعلم عاماً، والجهل معدوماً، والأخوة شاملة، والعداوة زائلة، والمكر بعيداً، والإخلاص قريباً، والنفاق مدبراً، والاستواء مقبلاً، لرأينا ما يرى الأعمى حين يرتد بصيراً، أو من كان في الظلمة فيستبدل بها نوراً، حيث يرى الأرض الفسيحة، والمروج والرياض، والأشجار والأنهار، والكواكب الزاهرة، والشمس الساطعة، والقمر البازغ، والسماء الزرقاء والألوان الزاهية، والصور الجميلة، والحدائق ذات بهجة، فيخيل إليه أنه انتقل من عالم إلى عالم آخر.

لكن هيهات وأنى؟ وكيف لنا ذلك؟ والجهالة فاشية، والأخلاق زائغة، والقلوب متنافرة، فترى كل واحد يخفي لآخر ضباً، ويضمّر له سوءاً، فهذا يعامل ذاك بالكذب، وذاك يبادلّه بالغش، وكل يرى أن دولاّب مصالحه لا يدور إلا بهذه الأخلاق وتلك الأعمال.

لكن لا يأس من روح الله، ولا قنوط من رحمته، ونحن بعد ننظر إلى المصلحين بعين تستمنح منهم الإصلاح، وننتظر من قادة الأمة وكتابها، وعلمائها وساستها، أن يشمروا عن سواعدهم، ويقيموا المعوجّ من النظم، والزائغ من الأهواء، ويرجعوا المتكّب إلى الطريق وما ذلك على الله بعزيز.

الحكومة الإسلامية

كانت ممالك المسلمين تحت سيطرة خليفة، يقبضها ويبسطها، ويطويها وينشرها، يأمر فيها ما يشاء ويحكم ما يريد، هو المرجع الأعلى لعامة البلاد الإسلامية، والقمة التي تنحدر منها سيول الأوامر والأعطيات والمناصب والعقوبات، لا يفرق في ذلك شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، برها وبحرها، سهولها وجبالها، مدنها وقراها، وأريافها وصحاريها، فكان يخاف جانبه البعيد، كما يخاف سطوته القريب، ويتصرف في قاصبيها، كما يتصرف في دانيها، وإن ثار ثائر، أو غلب متغلب، أرسل إليه من يخمد ناره، ويطفي ثورته، حتى يكون مصير المخالف مصير أم عمر التي ذهب بها الحمار، فكانت خيوط السياسة والاقتصاد والمعارف والزراعة وما إليها معقودة بأصابع الخليفة، إن شاء أرسلها وإن شاء مدّها، ولم تكن الرقعة التي يحكم عليها قليلة، فإن المسلمين كانوا يتربعون على أكبر إمبراطورية في العالم، وقد امتدت هذه الخلافة ثلاثة عشر قرناً وانتهت إلى محمد السادس من سلاطين آل عثمان، ولم يكن يضر الإمبراطورية العامة انشعاب المسلمين في فترات، فإن الالتشاق مهما كان، فإن الصلة الإسلامية لم تكن واهية، والأخوة المحمدية كانت تجمع بين الخليفين، أو الملك والخليفة بأواصر ربما كانت أشد من أواصر الرحم، فيرى كل فريق أن في علو صاحبه علوه، وفي انحطاطه زميله انحطاطه.

والمحور الأساسي في كل هذه المدة الطويلة - في الجملة - القرآن الحكيم، والسنة النبوية، وإن اختلف المستفيدون في كثير من الفروع، بل وفي بعض الأصول فإن ذلك كان كاختلاف أهل بيت واحد في المسلك والآراء لا يوجب قطع علائقهم.

وجملة القول: إن الاختلافات المذهبية، أو الطائفية لم تكن بالأمر الكثير من حيث الإمبراطورية العامة، والمكانة المرموقة العالمية التي فاز بها المسلمون ببركة رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله)، ولذا كان طرفا خيط النزاع يجتمعان - في أحيان كثيرة - لحل مشكلة جامعة، أو دفع نكبة من النكبات التي تواجه البلاد الإسلامية، ومن أروع الشواهد لذلك ما كان يفعله أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بالنسبة إلى من تقدمه من الخلفاء، فإنه ما كان يألو جهداً في حل مشاكل الأمة علمياً وسياسياً وغيرهما، كما أنهم يرجعون إليه في غير واحد من القضايا بالرغم من سعة الشقة بينه وبينهم في مسألة الخلافة.

وقد تمتع المسلمون بأول إمبراطورية في العالم، إذ الكون قبل بزوغ شمس الإسلام كان يعرف حكومتين فحسب، إمبراطورية الفرس، وإمبراطورية الروم، أما الأولى فقد ذابت في الإمبراطورية الإسلامية، فصارت إيران مسرحاً من مسارح المسلمين، لها ما لمصر والعراق والشام وغيرها، وعليها ما عليها، ولم تبق إلا الثانية، وقد ضولت وتبع كثير من مدنها إلى إمبراطورية المسلمين، فكان المسلمون آنذاك كالنجم الزاهر في السماء، لا تتألمهم أيدي العابثين، ولا تعيث في أراضيهم أرجل الخانين.

ثم أخذت شمس عزهم قبيل النصف الأول من هذا القرن في الأقول فأخذ الغرب والشرق يغزون بلاد المسلمين قطعة قطعة، حتى أنهكهم، وجعلوا يشنون عليهم الحروب حتى لم يبق لهم مجال الدفاع، فطفقوا يتدخلون في أمورهم من وراء الستار، حتى مزقهم كل ممزق، وبذلك انمحت من خريطة الدنيا هذه الإمبراطورية العظيمة، وأخذت مكانها دويلات صغيرة لا تملك لأنفسها شيئاً، كان ذلك أمر المسلمين، ثم صار هكذا حالهم.

وفي هذه الآونة الأخيرة، أخذت البلاد الإسلامية تنتفض كانتفاض العصفور، وقد ظهر بذلك للناس بصيص من الأمل، لا يدري ما نوى له الزمان من الإشعاع أو الخمود.

والذي أرى أن المسلمين إن عملوا أمرين، فازوا ورجعت العزة والإمبراطورية إليهم، وإلا كانت الانتفاضات أشبه شيء بانتفاضة العصفور بين صقرين، فإنه يسلم بينهما مادام التنازع والتخاصم، أما لو اتفقا، أو صارت الغلبة لأحدهما، فمصير العصفور برد الدم.

أما الأمران اللذان ارتأيت ضرورتهما بهذا الشأن فهما: تقارب هذه الدول بعضها من بعض وذلك بتكوين وحدة عامة تشمل الدول كلها، وأن تتمتع كل واحدة باستقلالها تحت هذه الوحدة، حتى تكون حال دول المسلمين، حال دار واحدة، حيث يتمتع كل فرد من أهاليها باستقلاله الذاتي في أكله وشربه وقومته وقعدته، وكسبه وأصدقائه، ومع ذلك يربطه بسائر أفراد أسرته رابطة الوحدة، ودخولهم جميعاً في ظل أب واحد، وأحضان أم واحدة، وألفة قوية، ووداد جامع. وجعل القانون الأساسي لهذه الدول المتحدة هو القرآن والسنة، بحيث يكونان مدار الأحكام الاجتماعية والانفرادية، والأخذ والعطاء، والتحابب والتباغض، كما كان في الإمبراطورية الإسلامية السابقة.

ومن المغالطة ما يلهج به بعض المثقفين من أن الإسلام لزمن غير زمن الذرة، إن هؤلاء إما لم يدركوا حقيقة الأمر، أو يتعمدون في انتحال الجهل، هل أن كون الإسلام ذا حكومة قوية تضم بين جناحيها ستمائة مليون من المسلمين^(١)، تعمل على نهج القرآن والسنة، في التجارة والسياسة والعقوبة والتربية والتعليم وما

١- الإحصاءات الأخيرة تؤكد على أن المسلمين بلغوا المليارين عام ٢٠٠٠م.

إليها، ينافي الكهرباء، والطائرة، والرادار، والذرة، والسيارة، والغواصة، وما إليها.. الإسلام روح ومعنوية، وسياسة وقصاص واقتصاد، وأخلاق وآداب وفضيلة، والمذكورات مادة، وكشف واختراع، ولا يكون بين الأولى والأخرى أي نزاع، وأية مخاصمة.

تبديل القانون المدني، بقانون ديني، أبسط من أن يقع فيه حوار، أو يقال بأنه ينافي العلم أو الذرة، إن ألمانيا تطبق على مدنها قانوناً غير قانون فرنسا، وفرنسا تطبق على ممتلكاتها قانوناً غير قانون إنكلترا، وهكذا بالنسبة إلى إيطاليا، وأمريكا، والسوفيت، والهند، وغيرها فليكن قانون الإسلام مطبقاً في البلاد الإسلامية. أوغل الغرب والشرق في البلاد الإسلامية، وقتل المسلمون أولئك ولا تزال أدمغتهم مكهربة بمزاعمهم الاستعمارية، ولذا يرى بعض المسلمين، الإسلام ينافي العلم والعصر، ولو قيض الله الحكومة التي ذكرناها، لرأوا أن الأمر لم يكن كما زعموا.

قلم ولسان

معجزان من معاجز البشر الكثيرة: مقوله الجاري، ويراغه الساري، إن من البيان لسحراً، وإن من القلم لمعجزاً، ضمير الجاهل يطوي على مثل ضمير العالم، نهاية الأمر ذاك مجمل وهذا مفصل، وضلوع الخطيب تنحني على شبيهه ما تنحني عليه ضلوع الأبيكم، منتهى الفرق ذاك أشدق وهذا أكن، وفؤاد الكاتب يشمل على ما يشمل عليه فؤاد الأمي، أقصى التفاوت أن ذاك قادر على إجراء ما في قلبه مع مداده على بياض طروسه دون هذا.

قلم، ولسان، ولكل أهل، وغاية الخير لو اجتماعا، ومن يفقدهما كان كالأعزل، ومن يجدهما كان كالمدحرج، فكما أن المدحرج عن نفسه وعرضه وماله وأولاده، وعشيرته وأقاربه، وأهل بلده وقطره، بالسلاح، كذلك مثل الكاتب القدير والمتكلم البليغ، وفي التاريخ شواهد كثيرة لهذا المقال، فرب كلمة تلفظ أو تكتب جلبت نعماً ودفعت نقماً، ورب سكوت أورث حسرة.

بالقلم واللسان يهدى الناس ويضلون، ويؤمنون ويكفرون، ويعطون ويمنعون، ويصلحون ويفسدون، ويرحمون ويقتلون، فمن أراد هداية البشر احتاج إليهما، ومن أراد إضلالهم لا يستغني عنهما، إن كل مبدأ انتشر في العالم، أو كان في الحال منتشراً، وكل دولة قامت على ساق، أو هي قائمة فعلاً، كان في بدء أمره فكرة، فعزم، فنطق. أو قلم، فأنصار فقوة، فجهاد وجهد، فسعة ومبدأ، أو ممالك ودولة، وكما أن المبدأ والدولة يحتاجان في بدء الأمر إلى هاتين الآلتين: المقول واليراع كذلك يحتاجان في دوامهما، فدين لا يظله قلم، ولا يمدده مقال، أقرب إلى الانهيار من الليل إلى النهار، وكل دولة لا تدعمها أسلحة الأقلام، ولا تعضدها السنة الدعاة، أذنت بمحوها عن الخارطة.

إن موسى (عليه السلام) أمر بالتبليغ، والرسول محمد (صلى الله عليه وآله) أمر بالتبليغ، وأمير المؤمنين علي (عليه السلام) أمر بالتبليغ، ومن الجزائريين: هتلر (١) حث على الدعاية، وتشوشل (١) حث على الدعاية،

١- أدولف هتلر (١٨٨٩-١٩٤٥م) زعيم ألمانيا النازية، أدت سياسته الظالمة إلى نشوب الحرب العالمية الثانية

عام ١٩٤٥م. انتحر عام ١٩٤٥م أثناء حصار برلين.

ولينين (٢) وروزفلت (٣) حثا على الدعاية، ليس ذلك إلا لأجل ما للقلم واللسان من التأثير العميق في النفوس مما يورث مدّ جذور المبدأ والدولة في أعماق الأرض، إن الدول تملك اليوم أقوى الآلات الحربية التي لم يشاهدها التاريخ، وهي الذرة، ومع ذلك تراها ترصد قسماً كبيراً من اهتمامها ومادياتها ومعنوياتها، للتبليغ والدعاية.

إن المسلمين اليوم يحتاجون إلى هذين أكثر من احتياجهم إليهما في كل وقت مضى، فالدعايات المضادة لأصول الإسلام وفروعه تنهال من شرق الأرض وغربها.. والعتاد الحربي الموجه ضد البلاد الإسلامية من أدهش العتاد، وأول نهضة المسلم لسان وقلم.. فهل يتوفر فيهم هذان العاملان؟ إنك إن استمعت إلى خطب الإذاعات، تراها غربية وشرقية، أما الإسلامية فيها فأقل قليل، أو معدوم، ولو تصفحت الكتب التي تخرجها المطابع، رأيت الإسلامية إلى غيرها نسبة الواحد إلى عشرة آلاف! ولم ذاك؟ لعدم توفر اللسان والقلم فينا نحن المسلمين!

الأدب

إن من أفضل الحسب الأدب، فهو كنز لا ينفد، وبئر لا تنزف، وعين لا تنضب، ونجم لا يغيب، وكمال لا يزول، وفضيلة لا تدانيها فضيلة، ولو اعتبر الأدب معتبر سائر للعيوب، كان من الصواب بموقع، وليس الأدب خاصاً بحالة دون حالة، أو زمان دون زمان، أو مكان دون مكان، بل تجري الآداب في الأقوال والأفعال، ونظرة العين، ولقطة الجيد، وأسلة اللسان، ومرعف اليراع، وجلسة الندوة، ونوم الليل، ويقظة النهار، وحركة الأصابع، ومراودة المجامع.. وأقرب مثل للأدب: العقل، فكما أن العقل يتدخل في كل شيء، فينظمه، ويجري في كل حركة وسكون، فينسقهما، كذلك الأدب.

الأدب في الناظرة: أن لا تسميها في كل منتدى وندوة، ومجلس وجلسة، والرياض الزاهرة، والمأسد الفاغرة، وأن لا تقحمها في كل دار من الكرة والباب، وتهاجم بها على البدن العاري والجسم البارز، وأن لا تخطف بها الصور المستورة، ولا تختلس ما يوجب حسرة، ويعقب ندامة. والأدب في السامعة: أن لا تصغي إلى سر مكتوم، أو نجوى مرموز، ولا تستمع إلى كلام يورثك هيجاناً، أو يجر إليك محناً وأشجاناً.

والأدب في الالفاظة: أن لا ترمي بها الأبرياء، ولا تنال من أعراض الشرفاء وأن لا تجعلها كالكلب العقور يعض كل مجرم وبريء، ونذل وسري، وأن لا تطلقها حيث ينبغي التقييد، ولا تقيدتها حيث يرجح الإطلاق. والأدب في الباطشة: أن لا ترسلها إلى أموال الناس، أو تعين بها باطلاً، أو تخط بها سماً زعافاً، أو تبطش

١- ونستون تشرشل (١٨٧٤-١٩٦٥م) رجل دولة إنكليزي، زعيم حزب المحافظين، أحد محققي نصر الحلفاء في الحرب العالمية الثانية.

٢- فلاديمير لينين (١٨٧٠-١٩٢٤م) زعيم الثورة الروسية ومؤسس الحزب الشيوعي.

٣- فرانكلين روزفلت (١٨٨٢-١٩٤٥م) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الثاني والثلاثون، له دور هام في الحرب العالمية الثانية.

بها في غير مورد.

والأدب في المجمع: أن لا تبصق ولا تمتخط، ولا تجلس جلسة كبر وخيلاء، وفتور واتكاء، ولا تتكلم أثناء كلام أحد، ولا تلمز وتهمز، ولا تشير بعين، ولا تقلد بيد أو رجل أو وجه أو حاجب.

والأدب في العائلة: أن لا تأمر ولا تنهى، ولا تصيح ولا تعيب، ولا تغضب للتوافه، ولا تقطب ولا تزعج، وأما البطش باليد والرفس بالرجل، فهما من أعمال الحمر والثيران، لا العقلاء من بني الإنسان.

والأدب في الأكل: أن لا يلفظ النواة وما أشبه من فمه لفظاً، وأن لا يأكل من أمام رفاقه، وأن لا يكبر اللقم، وأن يحفظ فاه حتى لا يسمع صوت مضغه.

والأدب في مجلس الدرس: أن لا يثرثر، ولا يجادل، ولا يناقش كثيراً، ولا يلهو بشيء.

والأدب في العشرة: أن يزور الصديق والغريب، ويحترم الكبير والصغير، ويحفظ لسانه عن نيل أخلائه، ولا يحمل عبأه على وديده.

والأدب في الكتابة: أن لا يباهي ولا يماري، ولا يسب ولا يتضجر، ولا يصعد مرة إلى السماء وينزل أخرى إلى قعر الماء، ولا يبالغ في المدح، ولا يغرق في الذم، ويجعل رائده الصدق والأمانة، لا الأجرة والتعصب.

والأدب في النوم: أن لا يقله ولا يكثره، ولا يغط.

والأدب في التجاور: أن لا يؤذي جاره، ولا يلقي قمامته عند داره، ويزوره في الأوقات المناسبة.

إلى غير ذلك من الآداب في الغسل والكنس، والأخذ والعطاء، والسفر والحضر، والأمر والنهي، والزواج والاختتان، والبيع والشراء، وما إليها..

والأدب في الغالب منبعه أحد أشياء ثلاثة: إما النفس المؤدبة التي تكون بطبيعتها ذات أخلاق وآداب، وفضيلة وعدالة، وأما مصاحبة ذي أدب جم، وملكة رفيعة، وإما الإكثار من مطالعة كتب الآداب، وتطبيقها مع الخارج.

وربما يستفاد الأدب، ممن لا يتأدب، فإن الإنسان إذا نظر إلى القميء البذيء الوسخ السخيف، لا يبرح حتى يستنكر فعله، ويزدري عمله، وينظر إلى فاعله نظر احتقار وتصغير، وبذلك يدرك نقص العمل وأنه ينبغي أن يتجنب، ويفيده ذلك الأدب..

فإنك إذا نظرت الرجل القاذورة، تنفرت منه نفسك، وعلمت أن مثله ينبغي أن يحتقر، فتترك القذارة إلى حسن الخلق، وإذا نظرت إلى الثرثار، أدركت قبح الثثرة، وحسن الصمت، واكتسبت بذلك الصمت، وهكذا، ولذا قال (بوذرجمهر) الحكيم حين سئل منه: عمن تعلمت الأدب؟ قال: (عمن لا أدب له) وما أعظمها من كلمة، بل يمكن أن يقال: أن هذا النحو من الاكتساب أفضل، من الأنحاء السابقة، إذ في تلك الأنحاء إنما يدرك الإنسان الفضائل صورة، وفي هذا يدركها عملاً، فكم فرق بين من يعرف أن خلف الوعد قبيح، وبين من وعده شخص بشيء، ثم انتظره في إبان حاجته، فأخلف، وهكذا..

ولو داوم الإنسان على الأدب، وقهر نفسه عليه مدة من الزمن، لم يلبث أن يعلق الأدب بذهنه، علوق الشجاعة بنفس الشجاع، والكرم بروح الكريم، فيكون ذا أدب رفيع، لا يتدخل في شيء إلا تدخلاً أدبياً، ولا يخرج من شيء إلا خروجاً أدبياً، ويكون قدوة للمتأدبين، ومثالاً فذاً للمطالبين، وكتاباً متحرراً للأخلاق والآداب.

وليعلم: أن كثرة مراعاة الأدب، ككثرة الكرم، والشجاعة، وغيرهما من الصفات الجميلة، ربما تنقلب إلى

الضد، فكما يكون الإفراط في الكرم إسرافاً، والإفراط في الشجاعة تهوراً، يكون الإفراط في الآداب، قيداً وسفهاً، فإن من يجلس جلوس أدب ونزاهة، في خلواته جلوسه في النوادي، كان أقرب إلى السخف من العقل، ومن لا يتعلم السباحة لكونها منافية للوقار، أقرب إلى السفه من الحجى، فكل شيء مقام، ولكل موضوع محل، والشيء إذا جاوز حده انقلب إلى ضده.

الدارسة

ذهب اليوم الذي كان السيف الآلة الوحيدة في ميادين الجهاد، وانقضى اليوم الذي كانت الخيل والبغال والحمير أسباب النقل إلى مشارق الأرض ومغاربها، وانحسرت الأزمنة التي كان يكتفي العالم فيه أن يعرف بعض قواعد النحو والصرف، والبيان والأصول والمنطق، وزمرة من المسائل الفقهية، مضى كل ذلك كمضي الأمس الدابر، ولكل زمان شيء ولكل شيء زمان.

إن من يريد أن يقاوم العدو في هذه الدورة، لابد وأن يتسلح بالمدافع والطائرات، والقنابل والباخرات، وكذلك من يريد العلم والتبليغ لابد وأن يصلح منهج دراسته، ويقوم معوج بحوثه، ويلمّ شعث معلومه، فلا بد أن يقسم وقته القصير الذي لا يزيد على أربعين سنة مهما طال إلى قسمين: قسم للعلم الأسبق بأدبه وآدابه، وقسم للعلم الحديث بفصوله وأبوابه، ويقتنع في منهج القسم الأول، بشيء من قواعد النحو والصرف واللغة والبيان، ويصرف الأكثر من وقته في التطبيق على اللسان واليراع حتى يعرف القاعدة، ويتمكن من تطبيقها، وليعتبر أمر معرفة القواعد عرضياً، وأمر التطبيق ذاتياً، فإن القواعد ما وضعت إلا للتطبيق، فلو كان في ذلك كالمعري وأبي الطيب لم يضره عدم معرفة القواعد، كما أنه لو انتفع بعلمه وعرف القواعد، لم يفده ذلك.

وبعد هذا فليصرف شطراً آخر من عمره في معرفة المنطق والسفسطة معرفة تؤدي إلى التمكن والتطبيق، وتمييز فاسد القضايا من صحيحها، لا عرفان المختلطات والمشتبهات والمتخيلات.

ثم ليبتدئ بالكلام ومعرفة الدين الصحيح بالعقل والنقل، ويهتم أثناء ذلك بمعرفة المذاهب والأديان، أكثر من اهتمام القدماء بعرفان الوجود والعدم، والحال والمحل، وبعد ما توفر لديه مقدار كاف من ذلك، فليشرع في أصول الفقه على قدر الحاجة والاهتمام إلى مواقع الصواب والخطأ، لا القدر المستغرق للعمر، بل الأعمار، وبعد ذلك يكب على معرفة الكتاب الحكيم وتفسيره، بما يدل على معالم الظواهر، مستعيناً في ذلك بما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله) والعترة الهادين، لا ما احتمله رجال مما لم يدل عليه دليل، وليس له من الظاهر سبيل، والذي ارتأي:

أن نهج بلاغة الإمام (عليه السلام)، مما يجب أن يدرج في هذا المقام، فإنه معين على فهم أصول الدين والأخلاق، ومعرفة التاريخ الإسلامي والجاهلي، وبعد هذا وذاك، فهو منهل نمير لاستقاء القلم واللسان، وتمارين لقواعد النحو والصرف والبيان.

وليجعل في جنب القرآن الحكيم والكتاب الكريم، دراسة الأخلاق السامية، وتمارين التخلق بها، ومطالعة الأحاديث المروية مع لحاظ درايتها، حتى يصبح حين ما يدخل في الاستنباط، غزير المادة، جمّ الفقه، قوي الفهم، مطلعاً على الأساليب الكلامية، فلا يأخذ الطير، أو تهوى به الريح في مكان سحيق.

ولما يتم هذه الأمور، كلاً بقدر الوقت والاقتصاد، لا الإسهاب والامتداد، فليشرع في بحر الفقه المواجه، دخولاً متوسطاً حتى لا يبقى على الجرف، ولا يأخذه الموج إلى محل الغرق، فلا وقتاً أبقي، ولا معرفة حصل، كما قد يأخذ الأوحدي، بل الأكثرى - في هذه الأزمنة - ذلك، فتراه لا يقطع من أربعين كتاباً من كتب الفقه، إلا المكاسب والطهارة، والحج والنكاح، وقد احترقت فحمة عمره، وأذنت قواه بالضعف.

إن أقوال العلماء لا تتم، ودائرة التحقيق والتدقيق لا تزداد إلا اتساعاً، ولذا يرى الرائي أن من كتب في هذا الميدان الفسيح، لم يزد على ربع الفقه على الأكثر - إلا من شذ وندر - هذا منهج علم الدين بمقدماته.

وأما القسم الثاني من العلم، وهو الذي اتسع موجه في هذا العصر، حتى شمل كل قروي وبدوي، وإن كان في السابق له حظ من الوجود أيضاً، فمنهج درسه أن يقرأ شيئاً من الحساب، يعينه على التمكن من الضرب والجمع، والطرح والتقسيم وما إليها، إلى أن يصل إلى الكسور الاعتيادية والعشرية.

وأما مسائل الجبر والمقابلة فهي لمن أراد أن يكون محاسباً فاضلاً، لا من أراد أن يصير عالماً جامعاً.. وشيئاً من الهندسة، بما يتبلغ به لمعرفة المثلث والمربع، والدائرة والقطاع، ليعرف مساحة الدور والأحواض، ويدرك البوصلة ونحوها، وشيئاً من علم الفلك قديمه المختصر، وحديثه المستطر، ليعرف القبلة بما كتبها القدماء، والمقاييس المتداولة فعلاً على ألسنة الأدباء.. وشيئاً من الجغرافيا والتاريخ، فإن هذين العلمين قد أصبحا اليوم ضروريين لا مناص عنهما للأديب والفقيه، والكبير والصغير.

ولو تطرق إلى الفيزياء والكيمياء وما إليهما بمقدار يعرف شيئاً من ضوئه الذي يستضيء به، ومروحته التي تحرك له الهواء، وسائرته وقطاره وطائرته ومداره، وميزان الحرارة والبرودة والمكواة، والمكبرة والهاتف والمذياع واللاسلكي والفوتوغراف والمضخات، لكان أكثر معرفة وأوسع إطلاعاً، كما أنه لو تطرق إلى علم النبات وتشريح الإنسان، وبعض الطب وعجائب تركيب الحيوان، ازداد علماً بإله السماء، وكثرت قيمته لدى الأقرباء والبعداء، فإن قيمة كل امرئ ما يحسن، وارتفاع الفلز بحسن جوهر المعدن.

والأجود أن يحفظ في كل علم مختصراً، ويكتب في كل فن أسطراً، حتى يكون كالمكتب السيار، ويبقى ما بقي الليل والنهار، وقد كان علماء المسلمين يتبعون هذه الطريقة في كل وقت وزمان، تبعاً لنبيهم (صلى الله عليه وآله) حيث كان يعلم ما يكون وما كان، بوحى من الله المنان.

إن العالم هو المرجع الديني، الأدبي، الاجتماعي، السياسي، التأريخي، الفلسفي، وقد يريد الناس من العالم علم التعبير، والرمل والجفر والتفسير، فكيف يمكن أن يقتنع بصفيرة من الفقه، وليس هذا الكلام منا بعجب، فإن من لاحظ سيرة النبي والأنمة (صلوات الباري عليهم)، لرأى الرجوع إليهم في كل صغير وكبير، وجليل وحقيق. وقد بقيت علوم لم نذكرها، كالتجويد والعروض والقراءات، لكن بعضها أشبه بالزوائد، وإن كان في الاغتراف منها فوائد.

وليعلم أن ما ذكر من العلوم والمعارف، يحتاج اكتسابها إلى جد واجتهاد، وتشمر عن ساعد الجهود، فلا تغرب شمس نهاره إلا مكباً على الدرس باحثاً، ولا يشيب شعر ليله إلا مطالعاً فاحصاً، فإن العلم كما يقال عن لسانه يقول:

(أعطني كلك، أعطك بعضي).

وليصرف همته إلى معالي العلوم ولبابها، ومجامع المعارف وعبابها، فإن العلم سبيله سبيل ما سواه من الموجودات، اشتمل على الغث والسمين، والحسن والأحسن، وجوامع الكلم، وأطراف الحكم، فليأخذ السمين الأحسن، الذي يفتح منه أبواب، وليترك الغث الذي ثمنه أقل من العمر المصروف من أجله، والله ولي التوفيق.

التربية والمحيط

أمران لهما كمال التأثير المباشر بحياة الكائن الحي، مهما كان من نبات وحيوان وإنسان، هما: التربية والمحيط.

إن النبات ينجم في المستنقعات التي لا تشرق عليها الشمس، فيكون أصفرًا ضعيفًا بدون بهجة ورواء، ونضارة ورونق، وهذا النبات بعينه، ينبت في التربة الصالحة، لا شرقيًا فيعدم أشعة الشمس عند مغيبها، ولا غربيًا فلا يرى مطلع الشمس فيخضر بهيجًا، يلفت النظر، ويستهوئ القلب، وهذا الاختلاف نشأ عن تبدل المحيط، كما أن كلاً من القسمين لو هُئنت لهما العناية الكافية والتربية الصحيحة، كان الفرق بين ما ربي، وما لم يرب، كالفرق بين النابت في هذا المحيط، من النابت في ذاك المحيط.

وكذلك الحيوان، فالذي ينشأ في موضع مناسب لقوامه، وكان تحت تأثير مربٍّ عارف، يفرق عن الذي ينشأ في محل لا يناسبه، أو لم يهتم أحد بتربيته، وهذا أمر ملموس لا يختلف فيه اثنان.

الإنسان، وهو أحد الموجودات الحية، لا يختلف في هذه الظاهرة عن أخويه: النبات والحيوان، بل ربما كان تأثير التربية والمحيط فيه أكثر وأكثر، إن البياض والسواد، والحمرة والصفرة في أفراد الإنسان ناجمة عن اختلاف المحيطات، فمن كان أقرب إلى المحور كان أكثر سواداً، ومن كان أبعد كان أكثر بياضاً، وما بينهما الحمرة والصفرة.

فيؤثر المحيط في اللون والشكل، والأخلاق، والأمزجة، كما يؤثر في الطول والقصر، والحسن والقبح، والصحة والمرض، والذكاء والبلادة، وما إليها..

وكذا للتربية أهمية كبرى من ناحية الأخلاق وما يمت إليها بصلة، وإن كان تأثيرها في اللون والشكل أقل من تأثير المحيط، لو ربي الصغير من فاتحة عمره بحب الخير، لأحبه.. ولو علم حب الشر، لأحبه.. فإن الصغير كالشمع يتشكل بكل شكل، ويتطبع بكل طبع، ويرجع إلى ذلك غالب التقاليد الدينية التي ما تزال حلقتها متصلة من الأجداد إلى الآباء، ومنهم إلى الأبناء، ومنهم إلى الأحفاد وهكذا، حتى يقطعها قاطع، ويفرق بين حلقاتها مفرق، ولذا نرى أبناء الطبيعيين يعتقدون بالطبيعة، والإباحيين يؤمنون بالإباحية، وكل من أبناء اليهود والنصارى والمسلمين، يتبعون آباءهم، بالرغم من صياح العقل بحرمة التقليد في مثل هذه العقائد.

ومثل التقاليد الدينية، تقاليد العادات، فلو جرت عادة جماعة بجعل التحية رفع اليد إلى الصدغ، تبعهم أولادهم، وكذلك لو جرت برفع القبعة، أو السلام، أو قول صباح الخير، إلى غير ذلك، فالتربية كالحجر الأساسي لبناء مستقبل العمر، فمن علمه أبواه ومعلمه ومحيطه على الصدق صدق، وعلى الكذب كذب، وعلى الأمانة صار أميناً، وعلى الخيانة صار خائناً، وعلى العدالة عدل، وعلى الظلم ظلم. إلى غير هذه من فضائل الأخلاق ورذائلها، ومحاسن الصفات ومساوئها، وصالح الأعمال وفاسدها وخير الأمور وشرها، وطيب الأقوال وخبثها.

ومن الأمثلة الرائعة لدعم المطلب، ما يحكى عن عمر بن عبد العزيز الخليفة المرواني، حيث سئل عن السبب الذي منع من أجله سبّ علي أمير المؤمنين (عليه السلام) مع أن الناس في تلك العصور كانوا يتناولونه من جرّاء دعايات الأمويين، حتى أصبح من التقاليد الموروثة لدى الأغلبية الساحقة - إلا من عصمه الله - فأجاب بأن العلة في ذلك أمرين:

الأول: أنهم حين كانوا أطفالاً عند المعلم يقرأون القرآن وسائر الدروس، جرت عاداتهم على سبه (عليه السلام) في المكتب، ثم أنه اطلع أستاذه على ابن عبد العزيز يوماً وهو ينال من علي (عليه السلام) فلما خلا المكان، قال له المعلم: هل بلغك أن الله تعالى رضي عن أهل بدر؟ قال: نعم، قال: وهل لك ما يدل على أنه غضب بعد ذلك عليهم؟ قال: لا، قال: فلم تسب من علمت رضي الله عنه، ولم تعلم سخطه عليه؟ قال عمر: قلت له: وهل كان علي (عليه السلام) حاضراً في بدر؟ قال المعلم: وهل خدمت نار تلك الحرب إلا بسيفه؟! قال عمر: فرجعت إلى نفسي، وعجبت من أمري وأمر أقرائي والمسلمين! كيف يُسبّ مثل هذا الشخص؟ وكيف لا يمنع عن ذلك أحد؟ إن ذلك أمر عجاب!!!

الثاني: أنه كان والدي خطيباً مفوّهاً، يخطب كالليث، ثم أنه التفت إليه يوماً وهو يخطب، فلما أتمّ خطبته وأراد أن يسب علياً (عليه السلام) كما هو مرسوم الخطباء في أيامه، رأيته كأن مانعاً يمنعه عن ذلك، ويتلجلج، وكأنه يقلع الكلام عن لسانه قلعاً، فقلت في نفسي: لعله عرض له عارض ثم أني جرّيته بعد ذلك، فرأيته كذلك يكون في جميع خطبه، فهو يخطب كالسيل الجارف، فلما يصل الدور إلى سب الإمام (عليه السلام) يجمجم ويطمطم، ويتلجلج لسانه، فتعجبت من هذا الأمر غاية العجب، وقلت: لابد وأن يكون لهذا الأمر سر خفي يكتمه عني! وصرت في صدد الاستفسار، فسألته يوماً عن السبب؟ فرأيته يخفي عني، ولا يبوح بما في ضلوعه، فأصررت عليه إصراراً، حتى أخذ مني العهود والمواثيق، بأن لا أبدي الأمر لأحد، وبعد ما اطمأن من دخيلة أمري، قال: إن سبي لهذا الشخص بدافع الراتب الذي أتقاضاه من الخليفة، وبحافز الإبقاء على مقامي ومنصبي، وإلا فإن الإمام (عليه السلام) من خلفاء رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهو ممن يلزم أن يمدح ويعظم، لا أن يُسب ويهان.

هذان هما الأمران اللذان سببا منعي من سب الإمام (عليه السلام)، وكنت قد نويت من ذلك الحين: أني لو تمكنت من المنع، لأمنع في أول أزمنة الإمكان، ولو اقتضى منعه كل غال وثمين.

وقد احتال لمنع السب حيلة ظريفة، ذكرتها كتب التاريخ والسير، وليس مما يهمننا هذه الكلمة، وإنما المقصد ذكر مثال يبين شدة صلة التربية بالعمل، فمن أحب أن يرى الخير في أولاده، فليربهم تربية صحيحة، تقرّ بهم عينه، ويتلج بهم صدره، وكل دولة تحب خير الشعوب، كان عليها أن تكنفهم تحت تربية فضيلة وأخلاق، ودين وعلم وأدب وثقافة.

رثاء العمر

الآن وقد تراءى شبح الموت الجاثم عن كثب، واشتعل مبيض رأسي في مسوده، وذهبت عني حمارة قيظ الشباب، وترقرقت في جنباتي صبرة قرّ الشيب، وأخذ العمر يذوب شيئاً فشيئاً في شمس الخريف، حتى لا يبقى

منه شيء حتى الحفنة الأخيرة، وأنشأت الروح الحارة تصرد على القوة تصريداً، وطفقت سماء النشاط تمطر طلاً رذاذاً، لا وابلاً غزيراً، فلا تعشوشب أراضي الفكر التي كانت يخرج نباتها بإذن ربها إلا نكدًا، لا ينجح مرعاه، ولا يسرّ مرآه، وشرعت أنتهّد تنهّد من فقد أعز ما لديه من مال وولد وعلم وجاه.

الآن وقد وصلت قمة حياتي..

قد بلغت الثلاثين وهو نصف العمر الطبيعي الذي أقدره لنفسي، والإرادة بيد الله، ولا أدري كيف أنحدر؟ هل كما صعدت؟ أقوم مرة وأقعّد أخرى، وأفرح تارة وأكتئب تارات، يرفعني سعد وينزلني نحس، يسوقني أمل ويوقفني يأس، بين غنى وفقر، وصحة ومرض، وعز وذل، ورضى وغضب..

أم يكون انحداري كجلمود صخر حطّه السيل من علّ، فلا أرى غير لين الشيب، وهدوء الضعف، وملاءمة بياض الشعر، أم أخفى لي الدهر بين طيات مستقبله الغائب شروراً وآلاماً، وأمراضاً وأسقاماً، وسباً وضرباً، وحسباً وذلاً، وهوناً ومقصلة.

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى***ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

الآن، وقد أخذت نُذِر الشيب تتري، واحداً تلو الآخر، وثانياً تلو الأول، فبينما يقوم أحدها في اللمة، يقوم الثاني في الصدغ، والثالث في العنن، كأنها نبال مريشة من مرامي الموت الكامن وراء أكمة الشيخوخة، ترميها كي تضعف هذه المنة، فلا تعضل عليه الصراع، ويكون له الغلب عند اللقاء، الآن، وقد قرأت في سجل حياتي سطور العمر المنقضي، وتذكرت خيره وشره، ونجده ووهده، وجده وهزله، وعزه وذله، وحله وترحاله، وضعته وإقامته، وصدقه وكذبه، وأحلامه وآماله، وأمانيه وغروره، وضعفه وقوته.

تذكرت حين كنت طفلاً أغرد كالشحرور في أغصان الرياض، لا أحمل همّاً، ولا يشوب خاطري شائب حزن وألم، ولا يخالجنني مضض وارتماض، ألعب مع أترابي، وأمرح مع أصحابي، لا أنام إلا فرحاً، ولا أستيقظ إلا جذلاً، لا أرى وراء يومي يوماً، ولا بعد فرحي حزناً.

وتذكرت إبان يفعتي حين كنت أغدو إلى الدرس صباحاً، وقد خالطني خوف العلم، وشماتة الرفاق إن لم أكن حفظت درسي، أو نبا بي ذهني في ما حفظته، ثم أروح إلى الدار مستبشراً فرحاً، أطيّر إليها طيران الحمام الزاجل، ألقى تعب المعلم والتلاميذ عن الكاهل، وتذكرت زمان كنت أعدّ فتى من الفتيان، وشاباً من الشبان، يجذّ جدي في التعليم والتعلم، والبحث والنقد، والحل والنقض، أتعلم الأصول تارة، وأعلم النحو أخرى، وأباحث الحساب حيناً، والهندسة زماناً، وأطالع التاريخ والجغرافيا، وأمارس الكلام والفقه.

وها أنا وصلت إلى دوري الرابع، ولا أدري كيف يمر بي؟ مرور الكوكب الزاهر في السماء؟ أم هوي الشهب دفعة في الظلماء؟ لا أدري هذا ولا ذاك؟ وإنما أدري خطفة الزمان، وعجيب تقلّب الأيام، وانتقال الدهر من حال إلى حال، فلا أبقى كما أنا ولا يبقى كما هو، بيني وبين مستقبلتي جدار لا يمكن نقبه، ولا يعقل تسلقه، حتى أرى ما وراؤه، وما يخط لي من الخطوط، وما يقسم لي بين الأقسام والأنصب، أيزجر الطير بسعدي فأغتبط؟ أم بنحسي فأحزن؟ وأتمدّ أنامل القضاء خط عمري في خرائط الأعمال فأطيل الأمل وأحكم البناء؟ أم تقصر فأقصر الأمل وأزيد في العمل، وأتدارك ما فات، وأشد الحزام لما هو آت.

لا علم لي بأي الأمرين، ولا أتمكن من استطلاع ما احتوت ضلوع الغيب المستور، كل ما أعلم أن عمر الدنيا قصير مهما طال، ومدته إلى انقضاء وإن امتدت، فكأنني انحدرت من هذه القمة التي أنا عليها اليوم، فوصلت

السفح، وهناك دعائي داعي المنون، وقضى علي بقضائه الأخير، وحكم علي بترحال لا أرجو معه رجوعاً، وبظعن لا آمال معه في إقامة، حتى وأنه ربما لا يمهلني لوداع أصحابي، واسترضاء أحبائي، ولا يستعيني ولا يُرضيني.

المبالغة

قسم من الناس يجيش في أنفسهم جانث الاضطراب، فلا يجدون ملجأ لإطفائه إلا بإعمال إحدى المشاعر، إما أن يبطش بيده فتكاً وقتلاً وضرباً، وحركة ولعباً، وإما أن يرفس برجله ويركض ويحركها حركة، وإما أن يصيح إلى أنغام وأصوات وما أشبه، وإما أن ينظر إلى مناظر مدهشة، أو منازة مطربة، أو أمور عجيبة، وإما أن يسوم لسانه في الرطب واليابس، سوم الماشية في الحشيش والخلاء، فيطلق مقوله رفعاً وخفضاً، وسباً وشتماً، ومبالغة وإغراقاً، فإن النفس الجائشة كالنار المحبوسة في التور المسدود، لا تجد أبداً من أن تخرج من بعض ثقبه، حتى تتنفس وتقذف بعض ما بها من الضغط، ولذا يهدأ الغضبان إذا استعمل بعض أعضائه استعمالاً خارجاً عن المعتاد.

المبالغة قسم من الكذب، إلا أنه كذب لا يواخذ به إذا لم يخرج عن حدودها المعروفة، فربما يبالغ الساهر في ساعة من الليل، فيقول ما نمت البارحة، وربما يخطو إلى فوق ذلك فيقول: ما غمض لي جفن في الشهر الماضي، وربما يُغرق فيقول: ما زار الكرى عيني في العام الغابر، إن الأخير - والحق - مبالغة بشعة لا يستسيغها الذوق، وإن اشتركت الثلاثة في كونها تخالف الحقيقة، وتنافي الواقع.

قد يقول المبالغ: إن فلاناً كالبحر جوداً، أو كالمزن كفاً، أو أفضل منه:

(فذاك يعطي ويبكي، وأنت تعطي وتضحك).

وقد يمثل وجهه بالشمس الضاحية، أو القمر ليلة البدر، وقد يشبه المسلمين - وهم ستمائة مليون (١) - بحفنة الكف، فيقول: ما قدر ما تصنع هذه الحفنة تجاه أعدائها الألداء.

الأفضل للرجل أن يترك المبالغة قليلها وكثيرها، إلا قدر ما يستلذه الواقع، ويستسيغه الطبع، ولا ينفر منه الذوق السليم، والذي أخال أن كراهة الشعر في الشريعة الإسلامية، بعض أسبابها: هي هذه المبالغات التافهة التي لا يزال الشعراء يستعملونها، والألطف أن كلاً من المبالغ والمبالغ فيه، ومن السامعين والناظرين في الدواوين، لا يفوتهم كذب المقال، وأن هناك مارباً خفياً جعل الشعر ستاره المسدول، من رغبة أو رهبة، أو تفريغ خاطر، أو متعة بأوهام.

وفوت المبالغ أن الواقع أظهر من أن يخفى تحت حواجب المبالغة والإغراق، إنا كلاً نعلم أن حاتم الطائي أجود من فلان وفلتان، ممن مدحهم الشعراء بمدائح هي غاية ما بلغ إليه فكر الشاعر، إلى غير ذلك من أوصافهم في البساطة والنجدة، والإقدام والاقتحام، والحسن والجمال، والخدم والحشم، والعلم والكمال. وأما المبالغ في النثر فهو أسقط من المبالغ في الشعر، إذ ينصر الشاعر ناصر فيقول: أكذب الشعر أعذبه، أو أعذبه أكذبه، لكن المبالغ في القول لا يجد ناصرأ في الأرض ولا في السماء، فلا يزال يبالغ، حتى يعرفه

١- بلغ عدد المسلمين المليارين حسب الإحصاءات الأخيرة عام ٢٠٠٠م.

الناس بذلك، فتفتحهم العيون احتقاراً، وتشمئز منه النفوس صغاراً، وتتجافى عنه المسامع أنفة واستكباراً، فيعرف في الملأ بأنه ممن يجعل الحبة قبة، والذرة درة، والأرض سماءً، والقطرة ماءً.

ولقد منيت فيما منيت به برجل يقول عن استقبال وفد بحفاوة، وقد لا يكون عدد المحتفين أزيد من مائة: استقبله مائة ألف أو يزيدون، ويقول لسهاد هزيع من الليل من وجع سن ألم به بعض الإمام: إنه أصيب في الليلة بسهر مستمر لوجع رباعية، لم ينزل بأحد من الأولين والآخرين، ولا يبالي أن يقول عن عالم ما أظنه تجاوز حدود أقرانه - لو أحسنت الظن -: أنه لا يمر بالصراط، بعد من اختاره الله للرسالة أو اصطفاه للولاية، أدق ذهنًا، وأقوم ذوقًا، وأعدل سليقة، وأقرب فهمًا منه.

ولقد رأيت فيمن رأيت من هذه الطبقة من جعل عدد تلاميذ بعض المدرسين فوق الخمسمائة، ومن سوء الحظ! إني كنت أحضر درسه ولم يكن يتجاوز عددهم عن العشرين. إلى غيرهم من المبالغين.

إن من يتكلم عدلاً، ويقول فصلاً، ولا يرفع شيئاً فوق مستواه، ولا ينزله دون مأواه، يكثر الاعتماد عليه، والاستناد إلى قوله، ويوسم عند الناس بسمة الوسط، وأنه غير مقل ولا مكتر، ولا معظم ولا محقر، ومثل هذا الشخص هو محور التاريخ، وقطب الأخبار، وميزان الرجال، ومقياس الحوادث والوقائع، ولذا نرى فيما يرى أن بعض المؤرخين يوصمون بوصمة الإقلال أو الإكثار، أو الجرح أو التعديل، أو التعظيم أو التحقير، فلا ينقل عنهم ناقل إلا موصماً، ولا يكتب عن أسفارهم كاتب إلا معلقاً، وبذلك تنهار مكانتهم الاجتماعية، وتذهب ربحهم، ويلحقهم الفشل.

ليعلم المتكلم، وليدرك الكاتب، أن المبالغة هجنة وعار ومنقصة، وإن ترك المبالغة أقرب إلى قبول الناس، والنفوذ إلى أفئدتهم من المبالغة، فإن الباطل لا يعلو وإن تعالى، ولا يكبر وإن تكبر، وإن الحق هو خير وأبقى، وليترك كل منهما المبالغة إن أحب سمعته، وأكبر منزلته.

ومن الغريب المناقضة التي تقع بين المبالغين، فهذا يرفعه إلى السماء، وذاك ينزله حتى يلصقه بالدقعاء، وكل واحد منهما ضنيل الفكر، مضطرب الجنان، لا يقدر لكلام ميزاناً، ولا يحسب لقلمه حساباً، ويبوء بالآخرة بخسران الثقة عن السامعين والناظرين، ولم يحصل ما رامه من رفع ممدوحه في أنفاس المصغين، وإنزال خصمه في أعين المبصرين، أو ما إليهما مما يتطرقه الإغراق، وتشينه المبالغة.

والمبالغة والإغراق، وإن كانا يظهران في المقول واليراع، إلا أن منبثقيهما القلب، فمن حفظ قلبه حفظ أسلات لسانه وأطراف بنانه، وليس بين هاتين الخصلتين: الاعتدال والمبالغة، إلا الملكة الحاصلة من التمرين، فمن زَمَ لسانه، ولجم بنانه، عن الزيغ والميل، مدة فلم يفرط في الكلام، ولم يفرط في الأقلام، ووفق للوسط وحصل على ملكة عادلة، وذوق مستقيم، فيرى بشاعة المبالغة فيتركها، وقبح الإغراق فيتجنبه، وبذلك يصبح أميناً في الحديث، معتمداً في النقل، ثقة في الأنظار، يؤمن شططه، ولا يخاف ميله ولغظه، ويكون ممن يفتخر به التاريخ إن كان مؤرخاً، والصحف إن كان كاتباً، والجليس إن كان صديقاً، والتريب إن كان حميماً، والبعيد إن كان مطلعاً.

والمبالغ لا يؤمن جانبه على كل حال، فإن كان مادحاً أوصل الممدوح إلى الجوزاء، وإن كان ذاماً نزل به إلى الغبراء، وإن كان ناقلًا زاد في الحديث إن أحب الثثرة، ونقص منه إن راقه الانتقاص، فهو كالأرجوحة التي لا تبقى على حال، وإنما تتأرجح بين الهبوط والصعود، والمترنج الذي يتمايل يمناً ويسرة.

القول والعمل

القول منجم العمل ومصدره، ومبدأه ومظهره، فلولاً القول لم يقيم للعمل قائم، ولا كان له أساس ودعائم، ونسبة القول إلى العمل، كنسبة البخار إلى المطر، فلولاً صغار الأمواه الصاعدة، لم يكن للسحب وجود، ولا الوابل بموجود.

وقد يخطئ القائل: إن الأثر في العمل وحده، وإن القول نازح عن النتيجة، لا علاقة بينه وبينها. ولو شئت قلت: إن الكلام كالبذرة، والعمل كالشجرة الباسقة، فلولاً البذرة لم تكن شجرة، ولولا الشجرة لم توجد ثمرة، والذي يقول: فلان رجل القول لا رجل العمل، وإن كان بمكانة من الصواب، إلا أن القول لا يمكن إخراجها عن إطار العمل بالكل، فإن إطار العمل يضم الفكر والقول والعمل، والنتيجة تترتب على جميعها، إلا أن صدورها عن العمل بالمباشرة، بخلاف القول.. فإنه أبعد بمرتبة، والفكر فإنه أبعد بمرتبتين. ولولا رجال القول، لم يتكون رجال العمل، كما أنه لولا رجال الفكر لم يتكون رجال القول. فكر، فقول، فعمل، فنتيجة.

ويشهد لذلك اهتمام كل من الأدبية الدينية، والدعاية الحكومية، بالقول اهتماماً بليغاً، فإن المذيع والصحف والكتب والمجلات وما أشبه، كلها قول وشبه قول، أليست خطب الخطباء، وألسنة الشعراء، وعظة الوعاظ كلها قول، وتترتب على كلها النتائج الناجمة عن الأعمال؟

أليست العقوبات قد وضع شطر كبير منها على الأقوال؟ والمثوبات قد جعل قسط سخي منها على الكلام؟ ولو لم يكن للقول أثر - كما يزعم الزاعم - فما تلك وهذه؟!

أنا أو من بالقول إيماني بالعمل، وأؤمن بالفكر إيماني بالقول والعمل، ولو نظرت إلى العالم نظرة معتبر، لرأيت الشرائع، والحكومات الفعلية والسابقة كلها مبنية على أساس من القول.

فبوذا^(١) لم يكن بدء أمره إلا رجلاً يدعو إلى مبداه بالكلام فحسب، ثم قوي حتى صارت من الشرائع، ويسود فعلاً على خمس أهل العالم.

وموسى (عليه السلام)، كان يدعو بلسان ثم قوي حتى حطم كيان ملك عظيم. وعيسى (عليه السلام)، بنى شريعته على القول، فكان يدعو بدون عدد وعدد، ثم انتشر دينه، حتى ساد في العالم الحاضر على أكثر من ربع أهل العالم.

ومحمد (صلى الله عليه وآله) كانت شريعته مبنية على القول، فكان يدعو في مكة المكرمة باللسان فحسب، وبعدما اكتمل له الناصر جاهد مدافعاً، ويعتق دينه اليوم أكثر من ربع أهل العالم.

و (جمال الدين الأفغاني)^(٢) لم يكن بأزيد من داعية بالقول، ولم يكن له سلاح إلا اللسان، وقد ذكر (عباس محمود العقاد) الكاتب المصري المعاصر، وغيره: أنه هو مبدأ حركات مصر وإيران والهند، مع العلم أن هذه

١ - غوتاما بوذا (٥٦٣-٤٨٣ ق م) فيلسوف هندي، مؤسس الديانة البوذية، ولد في أسرة نبيلة على الحدود الحالية بين الهند والنيبال.

٢ - مرت ترجمته في الصفحة ١٤ من هذا الكتاب.

الأماكن تضم بين جوانحها ما يقرب من خمس أهل العالم. إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة.
لا أقول: إن القول ناجح مائة في المائة، بل أقول: له الحظ الوافر في بناء أمر وهدم آخر، وتأسيس دولة، وإبادة دولة، وتشديد دين سماوي كأديان الأنبياء الثلاثة (عليهم الصلاة والسلام) أو طريقة بدعية كما هي كثيرة في مشارق الأرض ومغاربها.

فيتكلم المتكلمون، ويقول القائلون، إن أرادوا رشدًا، ولكن يلزم على المتكلم رعاية شرط إن أراد التأثير القريب، وهو أن يكون بليغًا، بمعنى إلقاء الكلام بمناسبة الظروف، على ما يرتضيه المصغون، فلا يكون الكلام نابياً عن المسامع، بعيداً عن المدارك، واقعاً في غير موقعه، فإنه ربما تنعكس النتيجة، وينقلب المرمى، ويكون عليه لا له.

وأما العمل فهو العلة المباشرة للتأثير، لكن القائم به قليل، بل أقل من القليل، ولذا تكون النسبة بين القائل والعامل، نسبة الواحد إلى الألف أو نحوها.

أمي

كم أخجل - يا أماه - أني كنت في القديم، لا أعرف قدرك، ولا أنزلك منزلتك التي تليق بك، ولا أحترمك حق احترامك، ولا أكون عند أوامرك ونواهيك، ورغباتك وطلباتك، بل كنت قد أنظر إليك بنظر المهانة والازدراء، عوض أن أرمقك بالعظمة والكبرياء.

آه وما أكثر ما حملت من أجلي من التعب، وعانيت من النصب، فقد حملتني إبان كنت جنيناً في أحفظ عيبة عندك، بين حنايا ضلوعك، متصلاً بفؤادك الذي هو منبع الرحمة والخير، فكان ثقلي ينوء بك عن القيام والقعود، والذهاب والإياب، فكنت تحملين ذلك راضية مغتبطة، فرحة مستبشرة، فلم أكن أزد - وأنا جنين - إلا ثقلاً على ثقلك، ووهناً على وهنك، وما كنت تزيد، إلا رضاً على رضا، وصبراً على صبر.

فلما أن اقتربت ولادتي، وأزفت حياتي، تحملت من آلام الطلق والمخاض، ما لا يحمله بشر، ولا يدرك قدرك إلا أم مثلك، فكنت تتحملين تململ السليم، تتنهدين مرة، وتكبين من شدة الوجع مرات، يندبك كل من يسمع صوتك، ويرى تغيرات لونك، ويصغي إلى آهاتك، حتى القابلة لم تكن تقدر على أن ترى حالاتك، وكنت مع ذلك كله، صابرة محتسبة، تتوسلين إلى الله تعالى في أن يسهل عليك الولادة، وتتضرعين إليه في أن ترين قرّة عينيك، وثمره فؤادك.

آه! ما أخجلني يا أماه، من هذه اللفظة: (قرّة عينيك، وثمره فؤادك).

وإذ سقطت إلى الأرض، وزرت هذا العالم لأول مرة، استبشرت وكادت غبطتك بي أن تنسيك آلامك، فعلق قلبك بي، وقرت بولدك عينيك، وتلج فؤادك، وبكيت فرحاً وسروراً، وغبطة وحبوراً، ثم كببت على رضاعي وحفظي، فكرست حياتك كلها علي، فكنت لا تنامين حتى أنام، ثم يوقظك من أعرق نومك اللذيق، صوتي الذي يقرع مسامعك فتقومين راضية، لا ترين أذية من إزعاجي إياك.

الحياة منخل

صدر التاريخ أضيق من أن يشتمل على كل حادث وكل تافه، وأوراق الكتاب أضن من أن يرقم فيها كل أمر جلّ أو دقّ، وأعين الناظرين وآذان السامعين وأفئدة الوعاة والسنة الناطقين أقصر من أن تحتوي كل شيء صغر أو كبر.

إن المدارك والمشاعر فطرت محدودة، لا تكفي لكل ما يحتويه الكون. فإن للكون دفترًا رحبًا، وفضاءً وسيعًا، طويلاً عريضاً، يمتد في بعده الطولي من أول خلقة العالم إلى انقضائه، وفي بعده العرضي الكرة الأرضية بسطحها وجسمها، بل الفضاء الواسع المهول، الذي قدرت سعة مجرة من مجراته وهي مجرتنا التي هي واحدة من بين المجرات والسدم، بأن مسيرة قطرها قدر سير الضوء مليوناً من الأعوام، وكيف يسع بصر تحجبه إبرة، وأذن تسدها صمة، وفم تمنعه شكيمة، وفؤاد هذه المشاعر طرائقها، الأرض والسماء، والبر والماء، والتاريخ ليس إلا أثراً من آثار هذه الحواس، فلا يضم على أكثر مما تضم هذه المشاعر.

الحياة منخل يبقي السهمين، وي طرح الغش، وهو ذو أطباق، فطبقة لا تبقي إلا الأندر من الأمور المهمة وهي ما تعمّ الكل أو الأغلبية الساحقة، ومن أمثلة ذلك عظام المرسلين، وكبار المصلحين، وأمثالهم، ومع ذلك فربما تظن القلوب عن معرفتهم، مثلاً: بوذا، مع العلم أنه يتمتع في هذا العصر بخمسمائة مليون من التابعين، لا يعرف اسمه - فضلاً عن سائر ما يتعلق به - في الشرق الأوسط، إلا القليل من الباحثين، والنبي محمد (صلى الله عليه وآله) مع ما ملأ الدنيا صوته، وتابعوه، حتى أحصوا في هذه الأيام بما يقرب ستمائة مليون (١) لم يسمع باسمه كثير من أهالي ألمانيا، كما حدثني بذلك بعض البعثات العلمية. مع أن الغالب في هذه الأيام غزارة الاطلاع والثقافة العمومية..

وطبقة تبقي المتوسطين من ذوي المراتب والكبرياء، فهم يتمتعون بمعرفة صقع خاص، أو مدينة خاصة أو ما إليها..

وطبقة تبقي الصغار من النابهين والنوابغ، وهذه هي الباقية، وأما ما عداها فطعمة الفناء والاندواء. إن الرجل بالعمل يبقى وبالعمل يفنى، وبالعمل يكبر وبالعمل يصغر، والعمل إنما هو بالهمة، فمن علت همته كثر عمله وذاع كبره، ومن سفهت همته استسلم لصغائر الأمور وتوافهها، فلا يقوم له قائم، ولا يحلق طيره في سماء الكرامة والمجد والعظمة، وقد ورد: (يطير المرء بهمته، كما يطير الطائر بجناحيه) و (من رام شيئاً، أدركه أو بعضه).

فليكن هم الإنسان بعيداً، وعلمه عظيماً، وسعيه حثيثاً.. إن أراد البقاء، بقاءً للاقتداء لا للكبر والبهاء، يقول القرآن: (وَجَعَلْنَا لِمَنْ يَشَاءُ مِنْكُمْ آيَاتٍ أَنْ يَقُولُوا هَٰذَا مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) (٢).

١- سبق أن آخر إحصائية لنفوس المسلمين بلغ المليارين، عام ٢٠٠٠م.

٢- سورة الفرقان: ٧٤.

الصراحة

يلوي كثير من الناس وجه كلامه حتى اليومي منه، فإذا سئل عن شيء؟ أجاب عن آخر، ويريد أن يقول ما في قرارة نفسه، فيقول غامضاً، ويحب أن يسأل عن أمر، فلا يصرح بمصعب النظر، بل يطرفه ويجمم، ويستشهد لأمر فيؤدي، ويستفهم عن كلام؟ فيطمطم..

ووجه فعله، فيفعل هنا شيئاً وهناك آخر، ويقوم هذا اليوم بعمل، وغداً بعمل آخر، ويظهر عملاً ويبطن عملاً آخر، ويراني شيئاً لا يطابق الواقع، ويفعل شيئاً ثم يخفيه..

ووجه درسه، فيقرأ كتاباً فلا يبديه، ويبيدي ما لا يقرأه، ويضع نفسه في موضع عالم، وليس هناك، ويرفع نفسه عن مقام علمي وهو هناك..

ووجه نظره، فينظر إلى مستلمح، ثم يظهر أنه نظر إلى السقف وينظر في كتاب وهو ذاهل، ليخفي بلبل نفسه، وهو اجس صدره، ولا ينظر إلى شيء وهو يظهر أنه ينظر فيه..

وهكذا يلوي رضاه وغضبه، وغناه وفقره، ونعيمه وبؤسه، ورفعته وصفته، وأهله وماله وولده، ونومه ويقظته، وصحته ومرضه، إلى غير ذلك.. ولو سأل عنه سائل: ما يقصد من هذا الالتواء؟ وأي شيء يعود إليه؟ رآه لا يتحرى جواباً، ولا يهتدي هو بنفسه سبيلاً إلى علة ذلك، ولو قرن عمله الملتوي بعمل غيره ممن يمشي سوياً وهو على صراط مستقيم، لم يوجد فرق بينهما، من حيث النتائج، فهذا يعيش في رفاه أو ضنك، وذاك يعيش كذلك، فإن الضيق والسعة لا يعلنان بالالتواء والاستقامة.

نعم هناك فرق يلمسه كل لاس، ويحسه كل شاعر، هو أن الوثوق والاعتماد يقلان بالنسبة إلى الأول دون الثاني، فترى الناس يركنون إلى قول من يستوي سبيله، ويستقيم قوله، فإن حدث اطمأنوا بصدقه، وإن وعد لم يشكوا في وفاه، وإن نقل علموا مطابقة كلامه للحقيقة، وإن أبى يسوا منه.. ويهتدون بعمل من استقام عمله، فإن كان مهندساً وثقوا بخرائطه، وإن كان طبيباً تيقنوا إخلاصه في الفحص وتشخيص الداء والدواء، وإن كان حاكماً رأوا صوابه في القضاء والحكم، وإن كان تاجراً سكنوا إلى بيعه وشرائه.. ويسكنون إلى أحواله الآخر، فإن رأوا الرضا في وجهه عرفوا دخيلة قلبه، وإن بدت الغضبة على ملامحه تفرسوا ما في فواده، وإن أقبل توسموا ودّه، وإن أدبر تفرسوا عداه.

وجملة القول: إن الرجل الصريح يؤمن شره، ويعرف أمره، ويرى دخيلته، ويكشف ما ضمت عليه جوانحه، وانطوى عليه ضميره، فالناس منه في راحة!! وليس الكذب، والغش، والغدر، والخيانة، والرياء، وما إليها.. إلا أغصان شجرة الالتواء وعدم الصراحة، فإن الصريح يصدق لأنه مطابق لما عنده، وينصح لأنه ما يراه، وفي لأنه مسلكه، ولا يخون لأنه دأبه، ويخلص لأنه ديدنه، وهكذا كثير من الصفات الذميمة الناجمة عن الالتواء.

وليس بين الصراحة والالتواء، إلا الملكة الراسخة في النفس، وتحمل بعض مشاكل الصراحة بادئ ذي بدء، فإن الصريح يصرح حتى تعلق الصراحة بنفسه، فتجري على لسانه وعينه، ويده ورجله، وذهابه ورجوعه، وكل حركة وسكون يصدران منه، فيعرفه الناس بالصدق، والأمانة، والإخلاص، والنصاحة وما إليها، وتكون حالة الصراحة عنده، كحالة الالتواء عند من اعتاده، لا فرق بينهما إلا أن ذاك صريح وهذا غامض ملتو.

وليعلم أن هناك شيء آخر لا يسمى صراحة ولا غموضاً، وهو الفرار عن المأزق بما يتجافى عن الصراحة، ولا يلتحق بالغموض، وهذا هو الوسط بينهما الذي ربما كان أفضل من الصراحة، فمن سأل الإنسان عن حبه

له؟ وهو لا يحبه، لا تجبره الصراحة بقوله الحقيقة، حتى يجر إليه العدا، فإنه يكفي لذلك الخروج عن الموضوع، أو السكوت عنه مهما وجد سبباً، ولا شك أن الصراحة التامة مهما لم يكلف أمرها شيئاً أضر من الالتواء أفضل، وهذا حديث آخر غير حديث الالتواء الذي يعلق بالقلب، فتظهر آثاره من المشاعر عفواً، بلا فكر ولا تلجلج.

يقال: إن رجلاً غضب عليه سلطان زمانه، فأراد قتله، فلم يجد الرجل بداً من الاختفاء، كي لا يصيبه مكروه، ولا يقع في مخالاب الملك الدامية، وكلما عقب الملك لم يظفر ببغيته، لأنه كان أخفى من أن يناله حاشية الملك وجواسيسه، ومضت على ذلك مدة سنتين، والملك لا يزداد في طلبه إلا إصراراً، والفتى لا يزداد إلا اختفاءً وتستراً، ثم أن في أحد الأيام قال رجل للملك: إن للفتى المطلوب أباً صدوقاً، لم يكذب ولا يكذب قط، فإن رأيت أن تحضره، وتسأله عن أمر فتاه، فإن علم مكانه لم يبال بالدلالة عليه لصدقه في كل صغيرة وكبيرة، وفي الوقت أحضر الملك أبا الفتى وأخذ يسأله عن مكان ولده؟ فلم يتحاش الوالد إلا أن أراهم مكانه وقال: هو في الدار الفلانية، في غرفة مخصوصة، متخفٍ بزي النساء.

تعجب الملك من ذلك وشك في صدقه، ولم يلبث أن أرسل هناك جنوداً وضباطاً للقبض عليه، وبعد برهة جاء الجنود مستبشرين وقد قبضوا على الفتى.

نظر الملك في وجه الوالد مرة، وفي وجه الفتى أخرى، وجعل يكرر النظر تحيراً وذهولاً، كيف أن الوالد هداه إلى محل فتاه؟ أليس يحبه؟ أم ليس يخاف عقابي المحتوم الذي كان يعلم بحلوله على ولده؟ ثم رفع رأسه قائلاً: عفونا عن الولد، ووهبناه لوالده، كرامة لصدقه، وإكباراً لصراحته، حتى في مثل هذا الموقف الرهيب!!!

ثم أن من غريب أمر هذين الرجلين: الصريح، والملتوي، أن الناس يطلعون على كل صغيرة وكبيرة من أمرهما، فلا يضعون الغامض حيث يضع نفسه، بل حيث وضعه الواقع والحقيقة، ثم ربما تعدوا عن ذلك، فلا يآتمنون الخائن، حتى لو نوى الأمانة، ولا يصدقون الكذوب، حتى في ما صدق، ولا يركنون إلى الغاش، حتى فيما نصح، ولا يقدرّون المراني، حتى فيما أخلص، فيسقط عن أعين الناس، ويهوي في مهوى سحيق، بينما كان يرى نفسه في السماء السابعة، وليس ذلك إلا لأن الحقيقة كالنور الذي يضيء، وإن لف بلفائف من الالتواء وأردية سوداء من الرذائل، وبهذا يخسر الغامض حتى حقيقته، في حين يربح الصريح كل ثقة وركون واطمئنان واعتماد.

إننا لم نزل نمدح الصريح، ونذم الملتوي.. فهل نحن من الأول أو الثاني؟

الإجابة على هذا السؤال من أبسط ما يكون..

فمراقبة يوم واحد من أيام حياتنا، بل ساعة من ساعات اجتماعنا كفيلة بكشف ذلك، لكن إذا لاحظناه على ضوء الحقيقة، لا في ظلمة الأتانية وتبرير الذات.

التبليغ

إن كل مبدأ عرفه التاريخ يتجلى أول ما يتجلى في فكر إنسان، إما بوحي من الله سبحانه، أو بوحي من الظروف ومقتضيات الاجتماع ونحوها، ثم لا يزال ينمو حتى يجري على أسلالت لسان ذلك المفكر، أو يجري مع

مداده على أنبوب يراعه، ومنه يتعدى إلى آخر، وثالث، ورابع، إلى أن يملأ جواً من الأفكار، ويكون له مركزاً من الأدمغة.

والمبدأ مهما كان فإنه كالبذر قد يصيب أرضاً خصبة في ماء وهواء وشمس وتربة، فينمو ثم ينمو حتى يصير شجراً ذا أغصان وفروع وجذور وثمار حلوة أو مرة حسب طبيعة الشجرة، وقد يصطدم بحجر في جوف الأرض فلا يمتد له عرف، ولا يرتفع له فرع، أو يصيبه إعصار فيه نار، أو يقلعه قلع، أو لا يصيبه الهواء والماء والشمس قدر كفايته.

فالمبدأ إن أصاب أفكاراً موافقة، وأدمغة خصبة، وأذاناً سامعة، وقلوباً واعية، كان (كَزَّرَعُ أَخْرَجَ شَطَاهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ) (١)، وإن لم تتوفر فيه الشرائط، أو اصطدم بمانع، كان (كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ) (٢)، أو لا يبلغ هذه المرتبة، بل يحترق قبل أوانه.

وعلى كل حال فالتبليغ أساس المبادئ والأديان، ثم يتطور المبدأ، بعدما وجد أنصاراً، فيستخدم القوة، في تنفيذه ومد جذوره في الأرض، وفروعه في السماء.

الإسلام - بما هو أحد المبادئ - يكون حاله كحالها في الحاجة إلى التبليغ مهما طالت شجرته، وامتدت عروقه، بل النبي (صلى الله عليه وآله) لم يكن يستخدم القوة إلا في الحالات الضرورية التي لا بد منها، فكان يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل بالتي هي أحسن، فإذا رأى عناداً أكيداً، وشحناء وبغضاً، وحسداً وغلاً، صبر حتى يتعدى الطرف الآخر ثم يجاهد جهاداً نبيلاً، ويدافع دفاع شرف وفضيلة، ولذا كان كثير من الناس تستهويهم دعوته، ويقربهم خلقه، ويؤلفهم عطفه وحنانه، وقد حث (صلى الله عليه وآله) على الدعوة والتبليغ (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (٣).

اليوم قد أذن الكون للمسلمين في التبليغ الذي لم يكن يعرفه آباؤهم الأقدمون، هياً لهم المذيع الذي يتكلم فرد ويسمع ملايين، وأعد لهم المطابع التي يكتب شخص، ويستفيد ألاف، ومهد لهم الطريق السهل في التعليم بسبب انتشار المدارس في كل مدينة وقرية، بل تعدى الأمر عن ذلك فبنيت المدارس في الصحاري والقفار، وبذاك وتلك وهذه اتسعت رقعة التبليغ، إن استغلوها.

وليس لأحد عذر - عند الله تعالى - في ترك التبليغ مع توفر هذه الوسائل، ربما تساعد الحكومات الإسلامية مع ما فيها، على إلقاء الخطابة في المذيع، أو جعل الدين في المدارس، أو فتح المدارس والكلليات، أو إخراج الجرائد، أو إصدار المجلات.

أليس من المؤسف أن يكون لباب النصارى الأعظم مذيع خاص يتكلم فيه مع العالم بأربعين لغة، ويبلغ دين المسيح (عليه السلام) ويوقر تعاليمه وأحكامه، ويتلو آي من العهدين، ويفسر ويشرح ويعلق، وليس للمسلمين مثل ذلك حتى يعلموا الناس الكتاب والحكمة، ويهدوهم من الظلمات إلى النور، ومن الظل إلى الحرور، يبينوا أخلاق نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله) وأحكامه وشرائعه ودساتيره وقوانينه، ويشرحوا قرآنه الحكيم،

١- سورة الفتح: ٢٩.

٢- سورة إبراهيم: ٢٦.

٣- سورة التوبة: ١٢٢.

ويفسروه ويهدوا البشر إلى الصراط المستقيم؟

وليس الأمر بالتبليغ متوجهاً إلى صنف، أو شخص، فإن الملك مسؤول عن رعيته، والفقيه مسؤول عن مريديه، والزوج مسؤول عن زوجته، والأب مسؤول عن ولده، وهكذا كل صنف (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)(١).

فمن الجدير بنا نحن المسلمين أن ننفض عن أفكارنا ققام الخمود، ونهب عن المضاجع، ونشرع في تبليغ الدين والأخلاق، والفضيلة والآداب، فإن أخذ بقولنا، وعمل بمبدئنا، سعد العامل، وسعد القائل، وإن لم يؤخذ ولم يعمل، فنجونا بقولنا، وكان الوبال على من ترك العمل بعد العلم.

التعمق

أمران متعاكسان في النتيجة، وإن توافقا في المقدمة وهما: التعمق في الماديات، والتعمق في المعنويات. كلما تعمق الشخص في شيء من الأمور المادية أورث تعمقه علماً، وفتح بحثه باباً كان موصداً عليه قبل ذلك، وكثيراً ما يظفر في نتيجة ذلك بكنز ثمين لا يقدر جوهرة، ولا تدرك قيمته، وأكثر ما نشاهد اليوم من المخترعات التي تفيض على الدنيا فيض السيل العرم، وليدة التعمق، وذلك لأن في الكون ركانز لا تلمس بالمشاعر، ولا تدرك بالفكر المجرد، وإنما بابها الوحيد البحث والتنقيب، والتجربة والتقليب، وكلما ازدادت التجربة ازداد المعلوم، وبازدياده يزداد الاختراع والإنتاج، ولو نظر الإنسان في تاريخ هذه الهنات المستحدثة، وأنها كيف ولدت فترعرعت، فشبت، فوصلت حد كمالها الحالي، لآمن بمدى تأثير الفكر والتعمق والتجربة في المدنية والرقى والعمران.

أما المعنويات، فلا يزداد المتفكر فيها إلا حيرة واضطراباً، وذلك لأن نتائجها مما لا تلمس بيد، فإنها غير قابلة لذلك، ويلحق بذلك التعمق في الألفاظ العرفية، ولذا ترى أن مباحث كثير من العلوم اللفظية إذا دخلت فيها التدقيقات لا تزداد إلا تعقيداً وغموضاً وإعضالاً.

ولو نظر باحث في كثير من مباحث الصرف والنحو واللغة والمنطق والأصول والكلام، مما نمقها قلم متعمق لوجد لما ذكرناه ألف شاهد وشاهد وكثيراً ما يقع اللف والدوران في المسألة من جراء التعمقات العقيمة. إن لفظة (أشياء) استعملتها العرب غير منصرفة، والمتبع في لغة العرب، لا يجد أزيد ولا أقل من هذا، أما أن أصلها كذا، ثم عمل بها كذا ثم صارت كذا، فمما لا يرتبط باللغة، بل هو أشبه بالبحث عن الضياء في الظلام، وعن الحقيقة في الأوهام.

وكذا (الأمر) معناه العرفي هل هو الوجوب أو الاستحباب، شيء يرجع فيه إلى العرف، كالرجوع إليهم في أن الماء ما هو؟ ودار زيد أين هي؟ أما الاستدلال لذلك بأنه طلب، والطلب يفيد الوجوب، أو أنه إلقاء في عهدة المكلف، أو نحو ذلك، فمما هو أشبه باللف والدوران، وتعريف الوردة بأنها جسم يشمه الإنسان.

لقد أصاب الأولون حيث اقتصرنا على متن اللغة، وعلى موارد العرف في المبحث الأصولي، والتوت الطريقة بعد ذلك، فربما وجد الباحث نفسه في علم لا يعرفه، فهو يبحث عن الحكم الفقهي، فإذا يرى نفسه في

الأصول ثم يظن أنه آخر المطاف، فإذا به يرى نفسه في علم الكلام، ثم يخال أنه آخر الشوط فإذا به يرى نفسه في الحكمة، ثم إما أن يرجع من حيث أتى، أو يبقى صفر اليد.

وربما تذكرت في أثناء مثل هذه البحوث عن اللغز الذي جعله بعضهم عن (القبلة) فقال: هي ضد (شرقي) بعدما أجرى عليه التعريب والتعجيم والقلب والتصحيف، وسلسلة الوصول هكذا:

شرقي.. غربي.. عربي.. ربيع.. بهار.. نهار.. يوم.. موي.. شَعْر.. شعر.. بيت.. دار.. راد.. زاد.. توشه.. بوسه: وهي القبلة.

وأما (الحكمة) فكثيراً ما تنتهي بالإنسان إلى (السفسطة) وإنكار حقائق الأشياء، ولذا فمن الجدير بالباحثين أن يقفوا عند حد كل علم، ولا يجاوزوه إلى ما ليس من فصيله، وبذا يكون قد أدى حق العلم، وحق نفسه في آن واحد.

فمعنى اللغة: ما ذكره أهلها من موارد استعمال العرب، الكلمات إزاء المعاني.

ومعنى الصرف: بيان مشتقات الأفعال والأسماء.

ومعنى النحو: عرفان آخر الكلمات والجمل من حيث الرفع والنصب والجر وما إليها.

ومعنى المنطق: بيان ما يدور في لسان العرف، وأقلام الناس من القضايا الصحيحة والفاصلة، وأن أيها تنتج، وأيها لا تنتج.

ومعنى البيان: عرفان الفصاحة والبلاغة بمراجعة كلام العرب والممارسة في منظومهم ومنثورهم، حتى تعلق بالذهن ملكة يتمكن الشخص بها من كلام فصيح بمقتضى الحال في موارد التكلم.

ومعنى الأصول: اتباع موارد العرف في معنى الأمر والنهي، وكيفية عملهم في المطلق والمقيد، والخاص والعام.

ومعنى الكلام: بيان ما يتعلق بأصول الدين إثباتاً ونفيّاً، من جهة العقل، وهكذا حال سائر العلوم.

والعلم أول ما يضعه واضعه إنما يلاحظ الغرض والغاية ويتكلم حوله، ثم لا يزال حتى يأتي أقوام آخرون، فيزيدون وينقصون، ويخلقون ويسفون، ويستخدمون موضوع علم لموضوع علم آخر، ويستوفدون مسائل عقيلة في علوم نقلية، وبالعكس، وليس الغرض من هذه المعاملات إلا حب الظهور الذاتي في بعض الناس، أو التحقيق والتعمق الذين يشغفهما المحققون طبعاً، فلا يلبث العلم حتى يخلع عن نفسه ثوبه القشيب البسيط، ويلبس ثوباً آخر لا يناسبه ويضيع وقت الطالب بين هذا وذاك.

التعمق في اللغة بيان الجامع بين المتشابهات، وفي الصرف بذكر القلب والأصل والفرع، وفي النحو بتحشية النزاع بين فلان وفلتان، وفي المنطق بتكثير الاصطلاحات وتطويل ذيل الكلي الطبيعي، وفي البيان بذكر رأي عبد القاهر والخطيب القزويني في الاستعارة والكناية، والإشكال والجواب، وفي الأصول بإطالة الكلام حول حد الأمر ومعنى الحرف، وفي الكلام بذكر آراء الحكماء، وأقوال الفلاسفة، والبحث حول المجرد والمادي، إلى مئات وألوف من نحو هذه المذكورات في كل علم لا يفيد إلا تبليبل البال، واضطراب الفكر، وفي الغالب يخرج الباحث صفر اليد عن الكتاب، فيكون حاله حال من يريد معرفة الخياطة، ليستقطر رزقه من سم الخياط، ثم يذهب ويبحث عن الإبرة ومعدن الحديد الذي تصنع منه، وأول من صنعها، أهو إدريس (عليه السلام) أم غيره؟ روجه الاحتياج الأول الذي أوجب اختراعه، وصانعها فعلاً، أو أمريكي أو ألماني؟ ومدة عمر الإبرة، ومقدار قيمتها،

ومظان بيعها وشرائها، وهكذا في الخيط، واللباس وغيرهما.

إن قارئ النحو والصرف والمعاني واللغة والعروض والتجويد، لو استبدل بها مطالعة منظوم كلمات العرب ومنثورها، وقرأ أثناء ذلك القواعد التي لابد منها من رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف إليه وما إليها، صار في نصف المدة المتداولة لدراسة هذه الأمور، ذا ملكة عربية تملأ بين جوانحه، وتفيض من لسانه فيض دجلة، وتجري على مداده جريان الفرات، ويشبه ذلك المنطق والأصول والكلام وغيرها.

وهذا الأمر يرجع بادئ ذي بدء إلى الأساتذة، فاللزم توجيه التلاميذ توجيهاً صحيحاً، كي يتمتعوا في مستقبلهم بأقلام قوية، والسنة فصيحة، وقلوب بليغة، يكونوا من حسنات الدهر، ونوابغ العصر.

الأحمق

إن الإنسان لو أقيمت المناحة حول رحله، أو يفترسه الهزير الهصور فيهصر عظمه، أو تقع النار في داره فتجعلها هشيماً تذروه الرياح، أو يأتيه العذاب من بين يديه أو بين خلفه، أو يخوي البيت على عروشه عليه، لم يكن يجد في نفسه من الضيق والضنك، ولا يبلغ قلبه الحجرة، مثل ما لو مني بالأحمق.

يموت الشخص فيستريح من هموم الحياة وآلامها ويهصره الأسد فيرى أنه حيوان لا مفر منه، وتحترق داره بالنار فيعلم أنها لا تدرك فتهون عليه المصيبة، ويأتيه العذاب فيسلي نفسه بأنه قدر وحكم من الله العالم بالمصالح، وكان حكم الله قدراً مقدوراً.

أما مصادقة الأحمق، فهي تمرد الفؤاد، وتكسر العظام، وتأكّل اللحم، وتشرب الدم، وتفور من الفم، ليس الأحمق صاعقة تصيب الإنسان، ولا ناراً تحرقه، ولا فقراً ولا مرضاً، وإنما هو الأحمق فحسب، ولست أجد لفظاً أثقل على القلب من هذه اللفظة، تدرك الهرة أنك محسن إليها أو مسيء، وتدرك الفأرة أن المصيدة يخاف شرها، وتفهم النملة مساقط النثار فتدبّ نحوها، ويعرف الحيوان المفترس المحبوس في قفص الحديد أن فلاناً يخدمه ويقدم له الطعام، فيحرك ذنبه شكراً له.

أما الأحمق، فتنفعه وهو يزعم أنك تضره، وتنصحه فيخال نصحك غشاً، وتعلمه فيظن أنك تريد من ورائه نفعاً، إذا قال قولاً غلطاً يريد تصديقك، فإن لم تصدقه فأنت من أعدائه أو من أعداء الحقيقة، وإذا عمل عملاً باطلاً يريد تحسينك، فإن لم تمدحه فأنت تحسده، أو لا تتمكن أن تراه، وإذا ترك واجبه أراد منك عذره، فإن لم تعذره فأنت جاهل بمواقع العرف، وإذا فعل ما ليس له أراك أن توافقه، فإن لم توافقه فأنت ممن لا يقدر الأشياء قدرها.

وجملة القول: يريد أن تكون مرآة لنفسه، لا مرآة للحقيقة، فتكبر الصغير من عمله إذا شاء ذلك وإن كان عمله بنظر الحقيقة من أصغر الأمور، وتصغر الكبير إذا أحب صغره وإن كان العقل يرى أنه كبير جداً، وهكذا تعظم قوله وإن كان تافهاً، وتجعل عمله حيث يجب أن يجعله وإن لم يكن هناك، تضحك إذا ضحك، ولو في مكان البكاء، وتبكي إذا بكى، ولو في موضع الضحك، إلى كثير من أمثال ذلك التي يعرفها من بلي بأحمق.

والأحمق لا يزق عن غيره في مواده الأولوية، وإنما يفرق في طرائق تفكيره، فهو كبيت بني مرحاضه في المكتبة، ومطبخه في غرفة النوم، أو جعلت الرواشن مكان الباب، والباب مكان الرواشن، أو طلى بئر

بالأسمنت الأبيض، وغرفته بالأسمنت الأسود. ومن الظريف أنه لا علاج لمثل هذا الشخص، فإن المريض يعالج فيبيل، والحريق يعالج فيطيب، والغريق يعالج فيرجع إلى ما كان عليه من الصحة، والجاهل يُعلم فيتعلم، لكن الأحمق كلما عولج ازداد حمقاً وبلاهة، إلى أن تنطبق عليه آية (أحمق من هبنقة)(١) ولذا يروى عن المسيح (عليه السلام) أنه قال: (عالجت الأبرص والأكمه، وعجزت عن معالجة الأحمق)(٢).

ولا أدري - فيما أدري - علاجاً أنجع من الفرار منه، وتجنب مواقع فرحه وبؤسه، وقومته وقعدته وغدوه ورواحه، وممساه ومصباحه.

إن الحمق شجرة تنبت في القلب، كأنها شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم، ثم تطول وتفرع حتى تثمر الحمق في جميع مشاعره، فيرى الحسن مسيئاً، والمسيء محسناً، والقليل كثيراً، والكثير قليلاً، والأسود أبيضاً، والأحمر أصفراً، ويسمع المطرب محزناً، والمحزن مطرباً، والمدح ذماً، والذم مدحاً، والقرآن تورا، والتوراة قرآناً، والشعر نثراً، والنثر شعراً، ويشم المسك فيتخيل أنها حلتيت، والورد فينظر أنه عذرة، والمرحاض فيخال أنه روضة، ويذوق الحامض فيدركه حلواً، والمالح فيزعمه تافهاً، ويلمس الخشن فيتخيل أنه أملس، وهكذا.

وبالجملة تبدل السماوات في نظره أرضين، والشرق غرباً، والجنوب شمالاً، والمرأة رجلاً، والشام عراقاً. إن مثل هذا الشخص لا علاج له حتى يلج الجمل في سم الخياط، يحذر بعض الشعراء عن مصاحبة الأحمق أشد من تحذيره عن مصاحبة الأفعى، يقول: إن الأفعى تلسع الجسم، والأحمق يلسع القلب.

وإذا أنسى، لا أنسى: ابتلائي بأحمق ممن ينتحل العلم، فكان يستفيد من بعض الآيات ما لا ربط له بالموضوع إطلاقاً، وذكرت حين ذاك الظريفة المشهورة: إن أحداً كتب كتاباً لبيان تحريم حلق اللحية، واستدل لذلك بكل آية في القرآن الحكيم، فاستدل بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)(٣) بهذه الكيفية: أن الله الذي اسمه بهذه العظمة حتى يبتدأ أو يستعان به في أول أسمى الكتب السماوية، لابد وأن يشكر حق الشكر، ومن أظهر أفراد شكره أن لا يؤدي خلقه، واللحية من خلق الله، فيجب أن لا تؤذى بالخلق.

ثم بعد مدة أخرى بليت بأحمق آخر، كأنه أخو الأول نقلاً وبراعة وعلماً وفهماً، فأنشدت:

بليت بأحمق فعجزت عنه***فكيف إذا بليت بأحمقين

وإذا ساعد الأحمق مال يرفعه، أو جاء يكبره، أو نسب طويل، أو وسط عليل، صدقت الآية الكريمة: (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا)(٤) على من مني به، وابتلي بصحبته، وليس له علاج إلا الفرار، ولو إلى وحش الفلوات، أو منقطع رمال الصحارى، أو رؤوس جبال البراكين.

١- مثل عربي.

٢- راجع بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٣٢٣ ب ٢١ ح ٣٦، وفيه: (أبرأت الأبرص والأكمه وعالجت الأحمق فلم أقدر على إصلاحه).

٣- سورة الفاتحة: ١.

٤- سورة مريم: ٩٠.

العمر

يخطو العمر سراعاً، ويوسع الخطى أميالاً لا أذرعاً، فما هو إلا لحظة أو لمحّة، حتى يأذن برحيل، ويدنو إلى الأفول، ليل ونهار، وغدو وأصيل، فما يفتتح وجه النهار بالضحي، إلا يتجهّم للأصيل، وما يطير الكون شمسها للنهار، إلا ليسترجعها لليل البهيم، فهو كالمجنون الذي لا يرفع دلاية من دلائه إلا ليخفّضها، ولا يظهرها حيناً إلا ليضمّرها، فمن استمع إلى الساعة سمع وقع أقدام الزمان، كأنه يختلس الخطى للفرار، ويملس إملاساً ويتسلل لوذاً، خوفاً من أن يمنعه أحد من الهرب، أو يعقبه معقب، فالعمر كالبرد في شمس تموز، يذوب على عجل، لا يلوي على شيء، ولا يقف عن السير، ثانية تتلو ثانية، ودقيقة تتبّع دقيقة، وساعة تعقب ساعة، وليل ينسلخ من النهار، ونهار ينسلخ من الليل، ثم يلف الكون الأيام السبع في ملف أسبوع، ويجمع الأسابيع الأربع في شهر، ويجمع الاثني عشر شهراً في سنة، ويلم سني العمر في علبة، ويختّم عليها إلى يوم يبعثون.

تطلع شمس يوم، والإنسان تراب تدوسه الأقدام، وتمشي عليه الماشية والأنعام، ثم تطلع شمس يوم آخر، وهو نبات يهتز بهيجاً، ويرتج خضرة ونشاطاً، ثم لا يلبث حتى يأكله حيوان سائم، أو يلتقطه طير حائم، فيستبدل اللحم والدم، بالنبات والحب، ثم يأكله الإنسان فيكون نطفة من مني يمني، ثم يجعل علقة تسوى، ثم يأخذ في أدوار الجنين والطفل والرضيع، ثم يشب ويشيب، ثم يموت وينقلب تراباً كما كان.

عجيب أمر العمر! فيه خفض ورفع، وفرح وترح، وعز وذل، وسعة وضيق، وأوج وحضيض، ونقص وكمال، ثم لا تمر أيام، ولا تذهب ليال، إلا والجميع قد مضى وليس منه إلا ذكر واطر: طيب جميل، أو سيئ قبيح.

وإنما المرء حديث بعده***فكن حديثاً حسناً لمن روى

من نظر إلى التاريخ بعين لفت واعتبار، لا لهو وتذكار، رأى السلاطين العظام، والأمراء الفخام، والقضاة الكبار، والحكام الكثر، ممن قد كانوا أوتاد البلاد، وساسة العباد، يديرون الأمور، ويسكنون القصور، تثنى لهم الرقاب، وتنقاد لهم الصعاب، لم يسمر السامرون إلا بأحاديثهم، ولا يدار في المجالس إلا كووس فرحهم وبذخهم وعددهم وعددهم، هذا يحارب، وذاك يرافق، ويزجر الطير بنحس أحدهم، ويظهر الكوكب بسعد الآخر، يصعد أحدهم إلى قمة العز دولاب الفلك الدوار، وينزل الآخر عن مركبه إلى حيث في الذل له قرار، فلم تطلع شمس، ولم يغرب قمر، ولم يزهر نجم، ولم تذرفلك، إلا والكل في طي النسيان، وثني الأذهان، كأنهم ما جاءوا ولا ذهبوا، ولا سكنوا ولا ظعنوا، وكأنه لم يرفع لهم علم، ولم يجر على الطروس باسمهم قلم، ولم يأمرؤا ولم يزجروا، ولم يتنعموا ولم ييأسوا.

هذا هو العمر، وهذا مقداره، وهذا أوله وآخره، وظاهره وباطنه، وعلوه وسفله، أصاب من أشبهه بالبرق الخاطف، والريح العاصف، أو الأحلام أو الخيال، أو الأفكار الطارية والصور الجارية، لا يؤسه يدوم، ولا عزه يبقى، كم من ملك أضحى أميراً، وأمسى أسيراً، وكم من فقير بات مدقاً، وأصبح مرفعاً، ورب غني لم يدم له الغناء، ورب شقي لم يطل به العناء، لا تدون أحوالها، ولا تسلم نزالها، ولا يدري المصبح فيم يمسي، ولا الممسي فيم يضحى، ولو قدر لأحد أن لا يطويه الزمان والمكان، ولا ينشره طوارق الحدثان، ثم نظر إلى هذه الرحي الطاحنة، والفلك الشاحنة، وتلك الأيام، واختلاف الأنام، لرأى من الأمر عجباً، يهلك مشاعره، ويذهل لبّه.

الإنسان إذا نظر إلى حاله يرى أنه قد مر به مار الزمان، ولفظه مكان إلى مكان، ولو سألته؟ قال: قرأت وألفت، ومرضت وأبللت، وغنيت وافتقرت، وسدت وسادوا علي، ورأيت وأوريت، وفعلت ما فعلت، وتركت ما تركت، وقلت ما قلت، وصمت عما صمت، والآن كأنه لم يكن شيء، ولم يمر بي مار لا حلوه ولا مره، ولا خيره ولا شره، ولا علوه ولا سفله، وإنما حصلت كتابين: كتاباً إلى ربي، وكتاباً إلى مجتمعي، وإن كان بينها الاختلاف الكثير، فالأول (لا يُغادرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) (١)، كلاً على حقيقته واقعة، ومحاسنه ومساويه، والثاني أخذ ضغثاً من الخير فأكبره، وضغثاً من الشر فأصغره، وسجل عظيمًا حقيراً، وضغثاً خطيراً.

وليس بين هذه الآونة إلى آتة النزاع، إلا بضع خطوات، إما أن تمحو ما سلف من السينات، وإما أن تحقق ما غير من الحسنات..

وكذلك كتاب سائر الأعمار، وألوان سائر الديار، وإن كان هناك فرق في الخطوط والرسوم، والمحمود والمذموم، فملك يطوي كتابه على العدل، وآخر على الظلم، وأمير يسجل له المحاسن، وآخر المساوي، وكاتب يحفظ عنه الخير وآخر الشر، وحاكم يرقم له الاستقامة، وآخر الزيغ، وغني يطبع بطابع الجود، وآخر بالبخل، وعالم ينتفع منه، وآخر يتضرر عنه، وتاجر يوسم بسمة النصح، وآخر بالغش، إلى غير هؤلاء.

وإذ نحن كلٌّ على جناح، إذ فات ما فات فلا يمكن رده، وبقي ما بقي فلا يمكن طمّنه، فمن الجدير أن نشمر عن ساعد الجد قدر الممكن، فنسد الثغور التي أحدثنا، ونلم الشعث الذي بددنا، ونرقع الخرق الذي أبدينا، ونصلح الخلل التي أظهرنا، (إن دواء الشق أن تحوصه)..

ولنغنم الفرص، فإنها تمر مر السحاب، ولا نقول غداً وبعد غد، فإن (ما فات مضى وما سيأتيك فأين، قم واغنم الفرصة بين العدمين)..

إن سعادة الدنيا، وخير الآخرة، منوطان بالجد والعمل، والناس قسمان: ساع سريع نجى، وطالب بطيء هلك، والعمر لا يرجع فائته، ولا يؤوب ذاهبه، ولا يتدارك ماضيه، ولا يدري بم يأتي مستقبله.

ويكفي حادياً لكل نفس، وسائقاً لكل فرد، ما يراه من الأعمار التي تتهدم بين يديه، تهدم البناء، وتتقوض تقوض الخيام، فهذا يرى صديقه وقد انساب عمره، وذاك ينظر إلى قريبه، وقد طار أمده، وذلك يسمع بالبعيد، وقد خفقت على رأسه أجنحة الأجل، والحساب بيد أدق الحساب، لا تفوته حتى الثانية والثالثة، ولا يذهب عنه ساكن الخباء، ونازح الصحراء، ومن يطير في الهواء، ويغوص في الماء.

المبدأ والقوة

إن المبدأ مهما كان خيراً أم شراً لا قوام له إلا بالقوة، أما المبدأ الفاسد فلأن الناس لا يدينون به - لعلمهم بفساده - فإذا لم تدعمه القوة لكان حرياً بأن لا يقبل، وإن قبل بالقوة ثم ارتفعت لكان حقيقاً بأن ينهار، ولعل من الشواهد لهذا الأمر مبادئ (نابليون) (٢) و (هتلر) (١) و (موسوليني) (٢) حيث قام المبدأ بالإرهاب والقوة بما

١- سورة الكهف: ٤٩.

٢- نابليون (١٧٦٩-١٨٢١م) ولد في أجاكسيو من أسرة بوناپرت، إمبراطور فرنسا (١٨٠٤-١٨١٥) اشتهر في حملة إيطاليا الأولى ١٧٩٤ والثانية ١٧٩٩، قاد حملة على مصر (١٧٩٨-١٧٩٩).

لهما من معنى متسع ثم انهاروا بانهيار قواهم.

وأما المبدأ الصحيح، فلأن البشر لا يدرك الصالح ولو قام عليه ألف دليل، ولو أدرك لا ينساب إليه ما عارض التقاليد والعادات، ولو انساب إليه اضطهده آخرون، مما سيؤدي إلى رجوعه، ثم هناك عوامل أخرى تكافح اعتناق المبدأ وإن كان في طرف الكمال، وهو كفاح أرباب المبدأ الآخر.. وكون المبدأ مهما خفّ فهو ثقل على عاتق المعتنق، فإنه لا يتيح الحرية المطلقة حتى ما أضرت الآخرين، لكل فرد، فلا بد وأن يقع التصادم بين مصالح الفرد ومصالح الجماعة مما ينجرّ إلى خلع الفرد المبدأ عن عنقه، كي يمشي وراء صالحه.

وقد صاغ التاريخ لذلك أمثلة من أصحاب الأديان وغيرهم حيث كان المبدأ ما لم تدعمه القوة غير ملتفت إليه، ثم لما عاضدته القوة - على اختلاف صنوفها - أوى إليه الناس، وأقبلوا يتهافتون عليه تهافت الفراش على مصدر النور، دعا عيسى (عليه السلام) إلى الله أعزل، فلم يؤمن به إلا نفر قليل، ثم لما ساعدت القوة مبداه، أخذ يوسع رقعته في غرب الأرض وشرقها، والنبي محمد (صلى الله عليه وآله) دعا برهة من عمره فلم يكن نصيبه أكثر من نصيب أخيه من قبل، وبعدما هاجر وتعرّز جانب الإسلام، رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا.

وجملة القول: أن القوة دعامة المبدأ، ولو أخذنا مبدأ بلا قوة فجدير بأن ينهار، كما أنه لو كان هناك قوة بلا مبدأ لم تتمكن من القيام ولو استقلت يوماً أو بعض يوم..

المسلمون كان يدعم مبدؤهم القوة في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله) بعد الهجرة، وهكذا توالى الحلقات في زمن الخلافة حقاً كانت أم باطلة، أبي بكرية أم عمرية أم أموية أم عباسية أم عثمانية، ولذا كانت قوانين الإسلام والقرآن لم تزل قائمة على ساق ولو بنسبة أو أخرى، وإن اختلف فهم الخلفاء تلك المبادئ، وإذا كان أفاد هذا شيئاً وذاك شيئاً، وكثيراً ما كان الدين يفرغ قوالب السياسة فيكون شنفاً في أذن الخليفة، وقلادة في رقبة زوجه، ووشاحاً على جاريته، لكن الدين بما هو دين قائم ومنيع الثقافة والاختلاف والاتفاق هو في القرآن الحكيم، وإن نبذه الخليفة وراءه ظهرياً حين خلا بندمانه وجواريه، وأنبذته ومغنيه، وليس حال المسلمين في هذا الأمر إلا حال سائر الملوك الذين يعتنقون المبادئ، فالبشر هو البشر تجلى في لباس خليفة، أو تقمص قميص الملك، أو لبس طيلسان كسرى، أو جلس مجلس قيصر.

فتح الغرب عينه في هذا القرن، ونفض عن جناحه غبار الخمود، وأخذ يمد يديه على عينيه، ليتأكد عن أحوال ما في الكون، فإذا قادة المسلمين نائمون، وهذا ما أتاح لهم الفرصة للتدخل في شؤون المسلمين بلفظ الحق الذي يراد به الباطل، والظاهر الخلاب المنطوي على آخر من النار، قطعوا أول الأمر أفلاذاً من مملكة آل عثمان حرباً ومعاهدة وغيرهما، ثم أسسوا جمعية الدستور - الاتحاد والترقي - وفي الحقيقة لم تكن الحرب إلا بين عبد الحميد وتتبعه الخلافة الإسلامية بقضها وقضيضها، وبين دول الغرب، وتمخضت عن سقوط الأول، فصارت الوحدة الإسلامية المتماسكة، والقوة التي تدعم المبدأ، أشلاء مبعثرة بين عراق يملكه فيصل الحسين،

١- سبقت ترجمته.

٢- بنيتو موسوليني (١٨٨٣-١٩٤٥م) زعيم إيطاليا الفاشية، أسس الحزب الفاشي عام ١٩١٩م أنشأ مع هتلر محور روما برلين عام ١٩٣٦م، أعلن الحرب على الحلفاء عام ١٩٤٠م ولكن هزيمة قواته أدت إلى سقوطه عام ١٩٤٣م، قتله خصومه عام ١٩٤٥م.

ومصر يتصرف فيها الخديو، وحجاز يتقلب فيه سعود، وأردن يأخذ بزمامها عبد الله الحسين، ودمشق ولبنان، ودرور، وجبال العلويين، وإسكندرونة، وفلسطين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تشتتت شمل المسلمين الأبعدين الذين تشملهم الهند والصين وغيرهما ممن كانوا يدينون بالخلافة العثمانية على بعد بينهم، وأصبحت تركيا بعد أن سادت البلاد، لا تزيد عنها عدداً أو عدة، أو سلاحاً أو نفوذاً.

ثم تدخلوا في إيران باسم انحصار التنباك تدخلاً ينم عن مقاصدهم، ولم يفد تحريم الإمام الشيرازي (١) في قصته التاريخية إلا بعض الشيء فقد كان الملك مع الغرب ويتبعه رجال الدولة طبعاً. وبانهيار هاتين الدعمتين الخلافة الإسلامية الفسيحة، والملوكية الشرعية الإيرانية، انهار الإسلام بقواعده، وارتفعت النعرات الطائفية، وجالت الهمسات القومية، وانقلب المسلمون رأساً على عقب، وأخذت قوانين الشريعة تتقلص على نفسها، وتنكمش حول ذاتها، تارة باسم الرجعية، وأخرى بسمة الخرافة، وثالثة بطابع مناقضتها لقواعد الغرب التي كانت أصلح - على زعمهم - لموكب الزمن السائر، ورابعة بقول أنها تنافي العلم الحديث: الكهرباء والماء والراديو والتلفزيون والسائرة والطائرة والباخرة وما إليها، وهذه لابد منها في الحياة، وهكذا خامسة وسادسة وما بعدها.. كل ذلك ولا حق لأحد أن يسأل عن هذه المزاعم، إذ القوة قد مال ميزانها إلى جانب الغرب، فأصبح المسلم وهو أخ المسلم يحارب أخيه، بينما يواد من حارب الله ورسوله ويقول إن أردت إلا الحسنى.

وبهذا خرجت خيوط الملك والدين عن أصابع المسلمين، فأصبحوا ييكون على دينهم وديناهم في وقت واحد، ولم يبق لديهم التقدم المزعوم مع ركب الزمن، ثم لم يلبث المسلمون زمناً حتى أسفر الصباح لذي عينين، ورأوا الخداع في هذا أيضاً، فلم يسمح لهم الغرب تقدماً عمرانياً، ولا صناعياً، ولا غيرهما، فبينما كانت أرض العراق تسمى السواد في أوائل الإسلام، لكثرة عشبها وخضرتها، أصبحت أرض البياض، تكسوها الشمس كل يوم، وتظللها الكواكب الزاهرة كل ليلة، وبينهما الرافدان كانا يصبان الذهب الأحمر في أرض العراق، أصبحا ينصبان في البحر، ليزيدا ماءً على مائه، وأسماكاً على أسماكه، وهكذا لم يسمح لهم استيراد معمل، أو اختراع مخترع، أو صناعة مصنوع، بل عكسوا الأمر فجعلوا العقوبات والغرامات على ذلك، ولم يزل المسلمون بأحكامهم الإسلامية في انحطاط وانهيار إلى يومنا هذا، ولا يعلم مصيرنا بعد اليوم.

والعلاج الوحيد الذي يمر في المخيلة: هو رجوع المسلمين على ما كانوا من الوحدة والائتلاف، وإن تفرقت مذاهبهم، وتباعدت بلادهم واختلفت ألسنتهم، وهذه هي الأساس الذي بنى نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله) عليه كيان المسلمين حتى حلقوا في سماء المجد ونشروا أجنحتهم بين الغرب والشرق، وكبر هذا الوليد الجديد في مهد الهجير حتى صار يبادر قرنيه (فرس وروم) العتيدين، في ربع قرن، وبقي زهاء ثلاثة عشر قرناً وحدة متماسكة، كلما أراد أعداؤه الإيغال في بلاده رفضهم لفظ الفم النواة، والمنجنيق الحجر.

لو كان اختلاف الآراء، وتباين الأشكال بالأبيضية والأحمرية والأسمرية والأسودية، وتباعد البلاد بالصينية والحجازية والمصرية والعراقية والجزائرية والتونسية، وعدم وحدة الألسن بالعربية والفارسية والهندية والتركية، توجب التضارب والتجانب، لكان اختلاف البلاد في القطر الواحد، وتباين المحلات في البلدة الواحدة،

١- المرجع الديني الأعلى الإمام السيد محمد حسن الشيرازي، المعروف بالمجدد الشيرازي، صاحب قصة التنباك الشهيرة (ت: ١٣١٢هـ).

ومغايرة الدور في المحلة الواحدة، وتعدد الأفراد في الدار الواحدة، توجب التضارب والتباعد، حتى يصبح كل فرد من أفراد المسلمين - والعياذ بالله - كنبت الصحراء لا يربطه بغيره رابط، ولا يجمع بين هذا وذاك جامع، وهو رجوع إلى عصر لا يذكره التاريخ، ويجلّ الوحش أن يشبه به.

أنا لا أنكر انشعاب المسلمين إلى آراء، ولا أنكر اختلاف بلدانهم وألوانهم وألسنتهم، وإنما أنكر كل الإنكار تشبّتهم بهذا الشكل الفظيع الذي يسبّب بعضهم بعضاً، ويلعن أحدهم الآخر، ويرفع الحواجز الكمركية والحدود الجغرافية أحدهم في وجه الآخر.

المسلمون وإن اختلفوا في أشياء كثيرة، إلا أنهم متفقون في الأكثر: فبالههم واحد، عالم، قادر، حي، مريد، مدرك، قديم، أزلي، متكلم، صادق، رؤوف، رحيم، حكيم، سميع، بصير، يحب الخير وأهله، ويبغض الشر وأهله.. ونبيهم واحد، جاء (مُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِأَيْدِيهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا)(١)، (مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ)(٢)..

وقرآنهم واحد، فيه (شِقَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ)(٣)، (هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)(٤)، (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)(٥)..
 وعترته نبيهم صادقون مصدقون، تركهم الرسول فيهم(٦)، كمثل سفينة نوح من ركبها نجي، ومن تخلف عنها هوى(٧)..

وأحكامهم: الصلاة والصوم، والخمس والزكاة، والحج والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتولي لأولياء الله ورسوله والتبرّي من أعدائهم، وكعبتهم واحدة، وكلهم يعتقدون بعدل الله سبحانه، وكلهم يعتقدون بالقبر والحساب والمعاد والجنة والنار، وكلهم يرون حرمة الخمر والميسر والأنصاب والأزلام والزنا والواط والسحق، والكذب والخيانة والغدر وبخس المكيال والميزان، والربا وشهادة الزور والتبرج والبدعة، والعقوق والكبر والإهانة، وما إليها من عشرات ألوف الأحكام أو مناتها أو ألوفها، وكلهم يعتقدون بالمعاد.

نحن المسلمون إذا بقينا أشلاء مبعثرة، بين مليون، وثلاثة ملايين وخمسة، وثمانية عشر، وعشرين، وثلاثين، وما أشبه لا نتمكن من حفظ كياننا، ولا المقاومة لمن عدى علينا من الأمم، ولذا نرى أن كثيراً من دول الإسلام تحتمي في حمى دولة غير مسلمة شرقية أو غربية، جنوبية أو شمالية، ومع ذلك تسومها تلك الدولة الخسف، ولذا أصبح المسلمون، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة، أليس المسلم أراف بالمسلم، من غير المسلم؟ أليس هذا الخسف مبرراً للاتحاد؟

ولست أقصد الآن من الاتحاد أن يترك الإيراني لسانه للهندي أو العربي مثلاً، ولا أن يترك العربي بلادة

١- سورة الأحزاب: ٤٥-٤٦.

٢- سورة المائدة: ٤٨.

٣- سورة يونس: ٥٧.

٤- سورة الأعراف: ١٥٤.

٥- سورة فصلت: ٤٢.

٦- إشارة إلى قوله (صلى الله عليه وآله): (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي، ألا وهما الخليفةان من بعدي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض) أمالي الشيخ الصدوق: ص ٤١٥.

٧- الصراط المستقيم: ج ٢ ص ٨١.

للتركي، ولا أن يترك الهندي طريقته للتونسي أو ما شابه، فإن هذا مما لا يكون. بل كل المقصد أن يرفضوا أحكام غير القرآن والسنة فلا يشرع لهم الدستور، ولا البرلمان، ولا مجلس الأمة، فلا قانون إلا قانون الإسلام، ولا محكمة إلا المحكمة الشرعية، ولا خمر ولا فجور ولا ربا ولا زنا.

أليس الولايات المتحدة تختلف عناصرها ديناً، ومذهباً، وطريقة، ولوناً، ولساناً، ثم يجمعهم دستور واحد؟ وبذلك حازوا ما حازوا، وتقدموا في ميادين العلم والحضارة ما تقدموا، ومنعوا جانبهم عن الضيم والذل؟

أليس الاتحاد السوفيتي سابقاً كذلك، مركب من جمهوريات جمعها جامع الاتحاد والاتفاق؟

ألسنا نحن المسلمين أولى بهذا الاتحاد والاتفاق، من كل أمة؟

ألسنا يقول الله عنا: (وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا) (١)؟ أما رأينا ذل التفريق والانقسام؟ ألم يكفينا نصف القرن هذا للتجربة؟

فريق يدعون إلى القومية، وآخرون يدعون إلى الماركسية، وجمعية إلى الديمقراطية، هب أننا قبلنا القومية، فهل يتمكن العربي أن يكون قوياً يكافح عن نفسه عادية الدولة القوية؟ وهل يتمكن الإيراني، أو التركي، أو الهندي ذلك؟

ولو أجبنا نداء الماركسية، فهل نحن مستقلون أم تابعون؟ مسلمون أم كافرون؟ ثم يحكمنا بعد ذلك علم آخر غير علم القومية والوطن والدين، ولو تمسكنا بالوطنية، فهل أوطاننا تكفي شر المعتدين؟ إنا لو جمعنا أنفسنا بعضاً إلى بعض، وأدخلنا في مجتمعنا كل مسلم، وإن اختلف لونه ومذهبه ولسانه وبلده، كنا على الأكثر ستمائة مليون (٢)، وحينئذ يكون النجاح خمسين في المائة.

وبعد ذلك نحتاج إلى الابتداء بكل شيء من صناعة وتجارة ومواصلات، حتى الدين الذي ابتعدنا عنه زهاء نصف قرن، وبعد هذا وذاك نصبح دولة قوية، يخاف جانبها، ولا تكون لقمة سائغة لكل مستعمر ومستثمر، ويكون حالنا حال سائر الدول، لنا ما لهم، وعلينا ما عليهم لا يخاف ويخاف منه، ويأخذ ويعطي، ويستشق الحياة.

من المؤسف أن يدرك (نابليون) هذا المعنى وهو شاب لم يبلغ الثلاثين ثم يأخذ في توسيع رقعة ملكة فرنسا، وإن لم يجمع أطراف الدولة جامع، ويدرك (موسوليني) هذا فيوسع إيطاليا، ويدرك (هتلر) هذا فيأخذ في توسيع ألمانيا، ويدرك (النين) ذلك، فيأخذ في توسيع البلشفيك، وكذلك تجمع إنكلترا وأمريكا أنفسهما، ثم لا يدرك المسلمون أو يدركون ولا يرجون التوفيق مع أن ما بأيديهم من سند قرآني (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) (٣) ما لم يكن بأيدي أولئك.

قصة (حزمة القصب) والملك، وأولاده مشهورة! لا يتمتع أي أحد بقوة إلا إذا انضم إلى آخرين، ولا يمنع أحد جانبه إلا بالوحدة والائتلاف، ولا ينهار مجتمع إلا بالتفريق.

فيا أيها المسلمون اتحدوا، وتمسكوا (بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) (٤) وطبقوا قول الله تعالى: (إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ

١- سورة آل عمران: ١٠٣.

٢- سبق أن عدد المسلمين بلغ المليارين عام ٢٠٠٠.

٣- سورة محمد (صلى الله عليه وآله): ٧.

٤- سورة آل عمران: ١٠٣.

مِنْ ذَكَرٍ وَأَنْتُمْ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ (١)، وكونوا وحدة جامعة يجمعكم القرآن والسنة، ويرفرف على رؤوسكم علم الأخوة (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (٢) الخفاق، ثم بعد ذلك كلٌّ وحرية في مذهبه، وكما يقال إن معنى الحرية هي حرية الفرد في إطار حرية المجتمع، كذلك حرية المذهب في إطار الدين، فكلٌّ يقطع يد السارق - بشروطه (٣) - وإن قطعها هذا من الأشجاع، وذاك من الزند، كلٌّ يعطي الزكاة، وإن أعطاهما هذا من مال التجارة مستحباً، وذاك واجباً، وكلٌّ يصلي الصلوات إلى الكعبة، وإن صلاها هذا مسبلاً والآخر متكتفاً، وكلٌّ لا يشرب الخمر وإن امتنع من النبيذ هذا، ولم يمتنع ذاك، وكلٌّ يعطي الخمس، وإن أعطاه هذا من الأرباح أيضاً، ولم يعطه ذاك.. وهكذا..

وبعد هذا الاتحاد الذي هو منبعث القوة، ومنبع العزة، وجماع المنعة يتمكن المسلمون من تبليغ دينهم السماوي إلى كل من في غرب الأرض وشرقها، برها وبحرها، متمدنها ومتوحشها، حتى ينخرطوا في هذا السلك النير، ويعتصموا بحبل الله المتين، ويسلكوا في صراطه المستقيم، فإن حقائق الإسلام، ونواميس الشريعة المحمدية (صلى الله عليه وآله) من أحسن المبادئ التي عرفها البشر إلى هذا اليوم، خصوصاً والناس متنورون، والتعصب في غالب الأماكن قد انهزم وولى الدبر، وبهذا يزداد المسلمون قوة يوماً فيوماً كما ازدادوا حين علموا حقائق القرآن في الأزمنة السابقة.

وأخيراً أقول: - عوداً على بدء - إن المبدأ الإسلامي ما لم تدعمه القوة لا يقوم على ساق، فليكثر المسلمون من القوة حتى ترجع إليهم عزهم ودينهم وديارهم وأخراهم، كما قال تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) (٤).

ولسنا نريد بالقوة القوة الحربية، بل القوة العلمية والصناعية والدفاعية.. وغيرها..

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

كربلاء المقدسة

محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي

١- سورة الحجرات: ١٣.

٢- سورة الحجرات: ١٠.

٣- ذكر الإمام الشيرازي (قدس سره) أكثر من أربعين شرطاً في قطع يد السارق، راجع موسوعة الفقه، كتاب الحدود والتعزيرات، وكتاب (ممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين).

٤- سورة الأنفال: ٦٠.

من مصادر التهميش:

القرآن الكريم
نهج البلاغة
أمالى الشيخ الصدوق
أعلام الدين
الاختصاص
الخصال
الصراط المستقيم
الكافي
المناقب
المنجد فى اللغة والأعلام
بحار الأنوار
تفسير القمى
مسكن الفؤاد
مكارم الأخلاق
ممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين
موسوعة الفقه، كتاب الحدود والتعزيرات